الفصل الرابع

مشكلات العراق السياسية

بين ١٩٢٠ – ١٩٣٩

١ – حالة العراق العامة بعد الثورة

٢ – أثر الانتداب البريطاني

٣ – الشعر والمعاهدات والساسة

٤ – عبد المحسن السعدون

١

حالة العراق العامة بعد الثورة

بعد أن فشلت الثورة العراقية حربياً دخل العراق دوراً جديداً من حياته السياسية . فقد استأنف العراقيون النضال السياسى من جديد ولم يفت فى عضدهم خسارتهم فى المعارك التى شنت ضد القوات المحتلة للحصول على الاستقلال والحرية . وقد امتاز هذا الدور بأنه كان دوراً سلمياً إذ حاول العراقيون الحصول على الاستقلال بالمفاوضات التى كانت تدور بينهم وبين الإنكليز للتخلص من عبء الاحتلال البريطانى الذى لا يتفق وأمانيهم القومية إذ أرادوا الحصول على ما حصل عليه إخوانهم فى سوريا والحجاز ، فقد شكلت دولة عربية فى الحجاز وأخرى فى سوريا ، ولم يكن العراقيون بأقل رغبة ولا كفاءة من إخوانهم فى هذين القطرين ، ثم إنهم ناضلوا معاً وضحوا كما ضحى إخوانهم . فلم استعمر العراق من الإنكليز وحكم حكماً مباشراً من قبل قواتهم العسكرية وضرب بعرض الحائط برغباتهم فى حق تقرير مصيرهم ؟ كره العراقيون أن يكونوا تحت الانتداب البريطانى ، برغم الدعوة التى صاحبته من أن فترته ستكون مؤقتة ، حتى يقدر العراق على حكم نفسه بنفسه ، وليس الانتداب سوى تقديم النصح والإرشاد للعراقيين حتى يتجاوزوا هذه المرحلة . لأن العراقيين لم يكونوا واثقين من هذه الأقوال ، والانتداب بحد ذاته معناه الاستعمار ، وعدم تحديد فترة الانتداب ونقض عهود الحلفاء ثانية أضاع ثقة العراقيين بالإنكليز ، وكان من جرائه أن يعتمد الشعب على نفسه فى المقاومة ليتحرر . ولم تجد جميع المحاولات التى بذلها السر برسى كوكس فى إقناع العراقيين بقبول الانتداب ، حتى إنه قال : إن الانتداب والاستعمار عند العراقيين على حد سواء[1] ، لأنهم قارنوا بين حكم الأتراك وحكم الإنكليز . فزادت كراهيتهم للحكم البريطانى .

كان الإنكليز يريدون أن يرضوا العراقيين ، ولكنهم لا يريدون أن يتخلوا عن العراق ،

---

(١) تحرر العراق من الانتداب ص ١ – ٤ والعراق فى دورى الاحتلال والانتداب صيدا ١٩٣٥ ص ٢٠٠ والجزء الثانى ص ٥٣٥ من كتاب مس بل المطبوع فى لندن سنة ١٩٢٧ .

فحاول المندوب السامى إبدال الانتداب بمعاهدة تعقد بين الطرفين ليخدر العراقيين بإنشاء حكومة وطنية مؤقتة ، ويبدو سوء نية الإنكليز ومخادعتهم للعراقيين واضحاً من الخطاب الذى ألقاه المندوب البريطانى فى عصبة الأمم مؤكداً بأن مبادئ الانتداب ستبقى مضمونة بالرغم من وجود هذه المعاهدة (٢) .

ولما شكل السر برسى كوكس حكومة مؤقتة مهد إليها إدارة بعض شئون الدولة ، وقد حدد المندوب السامى صلاحيات الوزارة التى تستمد سلطاتها منه مباشرة ، ووضع مع كل وزير مستشاراً أوجب حضوره مع الوزير فى مجلس الوزراء وأوجب موافقته على القرارات حتى تنفذ ، كما صنع مثل ذلك فى الألوية والأقضية وأبقى بعض المناطق تحت سيطرة الحاكم البريطانى مباشرة ، وكان القصد الأول منها تسكين الثورة وإسكات المدافع (٣) لبسط النفوذ البريطانى بعد تهدئة الأحوال العامة فى العراق .

أصبحت الآن وزارة فى العراق وأصبح للعراقيين حكومة مؤقتة هذا هو ظاهر الحال ولكن الحقيقة غير هذا ، فإن بريطانيا أرادت حل مشكلة العراق بتخدير العراقيين ، فعقدت بعد ذلك معاهدة بين السر برسى كوكس وبين الوزارة التى انتخبها كوكس نفسه لا تختلف فى نصوصها عن صك الانتداب بشىء سوى أن جعلت العراق حكومة مستقلة ومنتدبة فى نفس الوقت ، لذلك لم يرض الوضع العراقيين لما تضمنته هذه المعاهدة من انتداب حقيقى واستقلال مزيف .

ومما زاد الطين بلة والألم فى نفوس العراقيين تمديد أجل المعاهدة إلى خمس وعشرين سنة بعد أن كانت أربع سنوات (٤) .

إن العراقيين لم يكونوا راضين على أى حال من أحوال الانتداب ، فلم تفتهم الألاعيب الاستعمار مطلقاً ، يتجلى ذكاؤهم عندما بايعوا فيصلا على شرط الحصول على الاستقلال التام ، وقد كان فيصل يؤكد ذلك الشرط فى جميع خطبه على الناس قبل انتخابه وبعده (٥) ،

---

(٢) تحرر العراق من الأنتداب ص ٥

(٣) جريدة العراق ١١٢ بشأن استقبال برسى كوكس والعدد ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، المقالات الافتتاحية للتمهيد للحكومة المؤقتة ، و ١٢١ ص ٢ وافتتاحية ١٢٢ ، ١٢٣ ، وما بعدها بشأن لجنة الانتخابات العراقية وغير ذلك من المقالات فى نفس السنة عن الوضع العام ، والعدد ١٢٥ أسماء الوزارة المؤقتة وتعتبر الجريدة خير سجل رسمى .

(٤) يراجع مشكلة الموصل للتفصيل .

(٥) فيصل بن الحسين فى خطبه وأقواله ، أصدرته مديرية الدعاية سنة ١٩٤٥ يلاحظ ص ٢٣٢ وما بعدها من الخطب .

كما أن العراقيين كانوا يؤكدون عـلى فصـل رغبتهم فى الاستقلال التام فى جميع ما ألقى من شعر ونثر ، ويؤيد ذلك زعماء القبائل الذين كانوا يلحون برفض الانتداب والمطالبة بالاستقلال التام[٦] ، وقد تشكلت بعض الأحزاب السياسية مثل « الحزب الوطنى العراقى » و « حزب النهضة العراقية »[٧] فساعدت على بلورة الرأى العام ، وكانت تعقد بعض الاجتماعات السياسية التى توجه بها الرأى العام نحو الاستقلال وقد عقدت اجتماعاً مشتركاً أسفر عن إرسال احتجاج إلى الملك فيصل ثم السير فى مظاهرة سلمية تعبر عن سخطهم على الانتداب والمناداة بسقوطه وسقوط إنكلترا[٨] ولكن محاولات الوطنيين باءت بالفشل[٩] لكنها نجحت فى عـرقـلة المعاهدة ووضع شرطين مهمين : الأول – الدخول مباشرة فى مفاوضات تضمن إعادة النظر فى المعاهدة لضمان المطالب الوطنية ، والثانى : صيانة حقوق العراق فى ولاية الموصل إذا فشلت بريطانيا فى إلحاق الموصل بالعراق فتعتبر المعاهدة ملغاة[١٠]. لم تكن المعاهدة لتختلف عن صك الانتداب بشىء فالمادة الرابعة حتمت على ملك العراق أن يستشير المندوب السامى فى جميع الشئون المهمة وأن يستشيره استشارة تامة فى كل ما يؤدى إلى سياسة مالية .

وقد حاول الوطنيون عرقلة تصديق المعاهدة بوسائل متنوعة منها مقاطعة الانتخابات ، وطالبوا بسحب المستشارين الإنكليز من الألوية لأن وجودهم يعرقل سير الانتخابات ويمنع الموظفين العرب من العمل بحرية تامة وطالبوا بإعادة المنفيين خارج العراق ، فأثر ذلك فى سير الانتخابات وعطله فاتخذت الحكومة طريق الشدة ونفت جماعة إلى خارج العراق[١١] فسارت الانتخابات حتى نهايتها . ثم جرت حفلة افتتاح المجلس التأسيسى فى ٢٧ / آذار / ١٩٢٤ ، ولما عرضت المعاهدة على بساط البحث قوبلت بمعارضة شديدة ، فاستعمل الملك فيصل نفوذه الشخصى وأقام المآدب فى البـلاط لكـى يقنع النواب بالتصديق

---

(٦) جريدة المفيد العدد ١١٤ والعراق فى دورى الاحتلال والانتداب ص ٨ وما بعدها ج٢.

(٧) يراجع بشأن تأسيس الأحزاب « ذكرى فيصل » تأليف محمد عبد الحسين – بغداد سنة ١٩٣٣ ص ٤٥.

(٨) العراق فى دورى الاحتلال والانتداب ص ٩ وما بعدها ج٢.

(٩) حاول الوطنيون عرقلة الانتخابات وطالبوا بسحب المستشارين من الألوية لأنهم يتدخلون لصالح بريطانيا ، فما كان من الحكومة إلا استعمال الشدة فنفت الشيخ الخالصى وولديه وغيرهم إلى إيران وطلب فيصل من عبد المحسن أبو طبيخ مغادرة العراق فسافر إلى سوريا . مقدمة فى دراسة العراق المعاصر ص ٧٢.

(١٠) مجموعة مذكرات المجلس التأسيسى العراقى ص ٤٤٠ – ٤٤١ بغداد سنة ١٩٢٤ .

(١١) على أثر نفى الخالصى وخروج أبى طبيخ ، خرج بعض العلماء من العراق احتجاجاً على فعل الحكومة كالسيد أبى الحسن ومحمد حسين النايني زكى صالح ٧٠ ، والحسنى ٣٠ ، ٣١ ج٢ .

وذكرهم بما حدث له فى سوريا ، ثم أحرجهم قائلاً لا تتركوا فيصلاً معلقاً بين الأرض والسماء ، ومع ذلك كله فلم يوافق المجلس على التصديق حتى هدد المندوب السامى بإعلان الحكم المباشر على العراق إذا لم يصدق على المعاهدة[١٢] ولما انعقدت الجلسة الأخيرة تخلف النواب عن الحضور ولم يحضر من المائة سوى تسعة وستين نائباً وصادق عليها سبعة وثلاثون نائباً وبذلك أبرمت المعاهدة تحت الإرهاب[١٣] ولكن المجلس التأسيسى سجل على نفسه ثقل وطأة المعاهدة على الشعب[١٤] .

وبعد التصديق على المعاهدة أصبح للعراق وجهان مختلفان ، فهو لا يزال دولة منتدبة فى نظر عصبة الأمم ولكنها مع بريطانيا دولة حليفة مستقلة محدودة صلاتها بإنكلترا بمعاهدة تحالف[١٥] وبعد المعاهدة العراقية – الإنكليزية برزت مشكلة الحدود بين العراق وتركيا اقتراح لأجلها أن يمدد أجل الانتداب إلى خمس وعشرين سنة بناء على اقتراح لجنة الحدود[١٦] فحفز ذلك العراقيين إلى إنهاء أجل الانتداب فوضعت مادة جديدة لم يوافق عليها العراقيون سميت معاهدة ١٩٢٧[١٧] ولكن هذا الرفض لم يقطع الصلة بين العراقيين والإنكليز ، وإنما أظهر للإنكليز صعـــوبة السير فى مثل هـذه العلاقات ، فرفعت تقريراً إلى عصبة الأمم تشرح هذه المشكلة بكل جلاء وصراحة ، فقد جاء فى التقرير : « للعراق سياسة وطنية ومع هذا فهو تحت الانتداب . . وأن الوزراء مسئولون أمام البرلمان وفى نفس الوقت تحت سيطرة المستشارين الإنكليز[١٨] . . » ولم يكن أمام الطرفين المتنازعين غير أمر واحد هو إدخال العراق فى عصبة الأمم لحسم النزاع ، إذ أن دخول العراق عصبة الأمم سوف يجعله دولة مستقلة وبذلك سينتهى الانتداب الذى كره العراقيون اسمه وحاربوه ولعنوه[١٩] ليرضوا الرأى العام ويسكتوا أصوات المعارضة المطالبة بالاستقلال[٢٠] .

---

(١٢) الحسنى ٨١ جـ١ . (١٣) الحسنى ٨٣ وزكى صالح ٧٢ .

(١٤) الحسنى ١٣٨ ومذكرات المجلس التأسيسى .

(١٥) خدورى ص ٦

(١٦) League of Nations, Question of Forntier Between Turkey & Iiaq, C. 400. M. 147, 1925. PP. 88-89. وخدورى الصفحة ٦ .

(١٧) الحسنى ١٣٧ – ١٤٩ وزكى صالح ٧٥ .

(١٨) زكى صالح ٧٧ وخدورى ص ٧ والتقرير البريطانى ص ٢٧ .

(١٩) خدورى ص ٤ الحاشية .

(٢٠) كالجرائد والأحزاب والشعراء كما سنرى . ومن المقالات راجع لفهمى المدرس (مقالات) جـ١ بغداد ١٩٣١ فى أكثر مقالاته .

وقد تم دخول العراق إلى عصبة الأمم بعد عقد المعاهدة العراقية الإنكليزية الجديدة التي صودق عليها من قبل مجلس النواب فى السادس عشر من تشرين الأول سنة ١٩٣٠ . وبالمعاهدة الجديدة ودخول العراق عصبة الأمم فى الثالث من تشرين الأول سنة ١٩٣٢ ، أصبح العراق مستقلا وقادراً على أن يحكم نفسه بنفسه[٢١]

بعد دخول العراق عصبة الأمم أصبح له كيان عالمى معترف بـه رسمياً ، وقد التفت العراقيون بصورة عامة يلتمسون الإصلاحات الداخلية ، وليس هناك حوادث لها أهمية كبرى أثرت فى الشعر العراق تأثيراً كبيراً غير الانقلابين العسكريين اللذين قام بهما الجيش العراق ، فقد كان الأول فى ٢٩ / تشرين الأول / ١٩٣٦ بقيادة بكر صدقى العسكرى إذ أرغم وزارة الهاشمى على التخلى عن الحكم[٢٢] . أما الحادث الثانى فهو انقلاب رشيد عالى الكيلانى وقد امتاز هذا الانقلاب بصبغة وطنية لأنه كان ضد الإنكليز ، فكسب عطف الوطنيين وأثار فى نفوسهم ما كمن من رغبة فى تحقيق الأهداف الوطنية التامة واستغلال الفرصة بمناسبة الحرب العالمية الثانية ١٩٤١ ولم يدم أمد هذا الانقلاب إلا حوالى الشهر وعوقب القائمون به عقوبة صارمة[٢٣] ثم لما هدأت الأحوال وعادت الأمور تجرى فى مجاريها السابقة ، اصطلى العراق بنار الحرب العظمى الثانية .

---

(٢١) خدورى ص ٣٥ .

(٢٢) راجع زكى صالح ص ١٠٢ فقد جاء على ذكر مصادر مهمة فى حاشية البحث .

(٢٣) للتفصيل راجع زكى صالح ص ١١١ والقصة الرسمية لقيادة إيران والعراق ومذكرات تشرشل عن الحرب العامة

The Second World War Vol. III Ch XIV PP 224–237 (London 1959) See also "Paiforce", The Officail Story of The Persia & Iraq Command 1941–1946, H. M. Stationery Office.

٢

أثر الانتداب البريطانى

بعد فشل الثورة العراقية وسيطرة بريطانيا على العراق سيطرة تكاد تكون تامة . كانت أول مشكلة واجهها العراقيون هى مشكلة الحكم البريطانى من احتلال وانتداب وما سمى بالاستقلال ، وما جاءت فترة عقد المعاهدات المختلفة إلا لتبرير وجود الاستعمار البريطانى ، وتغيير مظهره لاسترضاء الشعب ، والحقيقة أن المعاهدات كانت تحويراً لصك الانتداب بذل العراقيون جهداً كبيراً فى التخلص منها ونبذ النير الأجنبى . بدأت أعمالهم بالاحتجاجات السلمية وكانت تتطور أحياناً إلى مظاهرة يطالبون فيها إلغاء الانتداب وإزالة السلطة الأجنبية عن العراق وإسقاط كل وزارة توقع أية معاهدة لا تتماشى ورغبات الأمة (١)

ولم يكن الشعر متخلفاً عن المشاركة فى العمل الوطنى فقد كانت أهازيجه من أعذب الأغانى ، وأرق الأناشيد ، تدعو للاستقلال والحرية اللذين حرم العراق منهما طويلا . وكان أثرها على العراق كبيراً إذ عمه الألم وشمله جو الحزن والكآبة ، وغدت أحاسيس الشعراء ألحاناً تندب أيام العراق الذهبية الوارفة الظلال ، ورأى أنها لن تتحقق بغير الكفاح والنضال والثورة والعمل المتصل . واستخلاص الحق السليب من بين مخالب المستعمر . أخذ الشعراء يهيئون أذهان الشعب ويذكرونه بماضيه المجيد ليعيدوا له ثقته بالنفس ، وليعرفوه بمنزلته بين الأمم الواعية ، ويظهروا المستعمر على حقيقته وأنه لا يقل عظمة ومقدرة عن المستعمر . فهو ابن العرب الذين شادوا الإمبراطورية العادلة المتسامحة ، ومن الشعراء الذين شاركوا فى هذا النضال أبو المحاسن وقد كان وزيراً فاستقال بسبب المعاهدة (٢) ومن شعره الذى يفخر فيه بالعرب قوله :

---

(١) أرسلت برقيتان إلى الملك فيصل الأول موقعتان من كثير من أبناء الشعب وأبرزهم السيد علوان الياسرى والسيد محسن أبو طبيخ والسيد قاطع العوادى والشيخ عبد الواحد سكر والشيخ شعلان أبو الجون (العراق فى دورى الاحتلال والانتداب ص ٨ و٩) عن جريدة المفيد .

(٢) المصدر السابق ص ٧٨ جـ٢ .

بقومى أسمـوا راقياً شرف العـــلا وأسطو بهم يوم الوغى وأصـــول
هم القـــوم أما عزّهم فمشيد تليـــد وأما مجـدهم فأثيـــل

وليزيد الثقة فى النفوس يعرج فى القصيدة إلى شمائل العرب الكريمة وسجاياهم السمحاء فيقول :

شمائل كالروض الأريض تضوعت بطيب شذاه شمأل وقبـــول
كرام يقيلون العثـــار وللـــردى بظل عواليهم ذرى ومقيـــل
لهم جبل راسى الجوانـــح راسخ وظل لمن يأوى إليـــه ظليل
فلا العهد منقوض ولا الوعـد مخلف ولا الجـار مخفور الذمام ذليل

ولرغبته فى التأكيد على إعادة الثقة بالنفس ، فضل العرب على غيرهم من الأمم ، وقد برر هذا التفضيل بعلمهم وإحسانهم وعدلهم وحضارتهم فقال :

يا ناطقـا بالضـــاد ما لفضيلـة معنى يتم بغير حرف الضـــاد
أو ليس عصر النـــور من آثارهم قبست لواضـــع نوره الوقـــاد
والعلم من ثمـرات غرسهم الـــذى عمّ الـــورى بفواضـــل وأياد
والعـدل والإحسان مـن حسناتهم وهى التى جلّت عن التعـــداد
وعلى مبادينـــا الحضارة أسست أيـــام ليست غيرهن أيـــادى

ولا يكتفى الشاعر بالماضى المجيد والحضارة العربية الشامخة وفضائلهم الكريمة [٣] إنما يلقى التبعة على الشعب العربى الذى يعيش ويقول صراحة إن إرادة الشعب هى التى تغير فساد الأوضاع وليس هناك غير إرادته الحديدية من مغير حينما قال :

سر أيهـــا الشعب ســـيراً إلى العـــلا غير هـــائب
فسيف عزمـــك مـــاضٍ ونهـــج حقـــك لاحب
إرادة الشعب أقـــوى عـــزًّا وأمنـــع جـانب
ما غـــولب الشعب يومـــاً إلا وذا الشعب غـــالب [٤]

---

(٣) جريدة المفيد العدد ٢١٥ السنة الثانية ١٩٢٤.

(٤) المفيد العدد ٤٧ السنة الأولى ١٩٢٢ وله قصيدة فى العدد ٨٨ من السنة نفسها وللشاعر مشاركة فى جريدة المفيد يستفيد منها الباحث ليطلع على أدبه ولاحظ العدد ١٧٤ من جريدة لسان العرب السنة الأولى ١٩٢٢ فقد نشرت له قصيدة فى افتتاحية الجريدة وهناك قصائد أخرى ، فله قصيدة فى العدد ٤٢ من السنة الأولى من جريدة المفيد يتحدث فيها عن =

ولم يتخلف معروف الرصافى عن هذا المضمار فقد ألقى قصيدة فى إحدى حفلات المدارس هز فيها مشاعر العراقيين وذكّرهم بماضى العرب المجيد ، وما قدموه للعالم من حضارة ، عندما كانوا متحدين أقوياء ، وطلب من أبنائهم أن يقتفوا أثر الآباء الكرام لأن الحياة الكريمة الشريفة لا ينالها غير المناضلين المجاهدين الأباة ، أما الخاملون الذين لا يحفظون تراث الآباء ولا يسيرون فى الطريق التى ساروا فيها ، فأجدر بهم الموت والإهمال الدائم ، فقال يندد بهم لأنهم لم يحفظوا هذا التراث قائلا :

وقد عهـــدوا لنـــا بتراث ملك أضعنـــا فى رعايتـــه العهـــودا
وعاشوا سادة فى كل أرض وعشنا فى مواطننـــا عبيـــدا[٥]

وشتان بين والد كان سيداً أينما حل ، وولد أضحى عبداً مستضعفاً مسترقاً فى عقر داره ، يحكمه المستعمر ويذله ، فما سبب استرقاق العرب فى أوطانهم ؟ !

يشرح الشعراء هذه الفكرة ويعزى ضعف العراق إلى تخاذله ، وإلى قوة المستعمر . وقد سرت هذه الفكرة بين الأدباء والصحافيين ، فهذه جريدة الزمان تكتب فى مقال افتتاحى لها تحت عنوان (استضعفونا فأهرقوا دماءنا – بريطانيا مسئولة عن هذا الضعف) ثم شرحت فى المقال ما أصاب العراق من تأخر تحت نير الاستعمار البريطانى ، وقالت إنها السبب الأول فى هذا التأخر فلم تصنع شيئاً فى سبيل تقدمه ورقيه[٦] وأخذت الجرائد عامة تندد بالانتداب الذى وقف حائلا دون أمانى الشعب ولن تتطهر أرض العراق إلا إذا بذل أبناؤها أرواحهم رخيصة فى سبيلها ، وما الحياة سوى تنازع على البقاء ، فقد قال هبة الدين الشهرستانى :

ليس الحياة سوى مجـــال تنازع فى العيش والأقوى هو المنصور[٧]

وقد ساعد الشعر الوطنى على بث روح الحماس فى النفوس ودعا إلى النضال والكفاح

= الشعب وعن الوحدة العربية وحوادث سوريا والعدد ٨٨ ولعبد الرحمن البناء قصيدة فى العدد ٩٠ من الجريدة نفسها وله قصيدة أخرى فى العدد ٢٥٣ / ٢ / ٩٢٤ وقصيدة لمهدى صالح العدد ١٦٥ / ١ / ١٩٢٨ ولأحمد حقى الحلى قصيدتان فى جريدة النهضة العراقية .

(٥) جريدة العراق ٣١٢ / ١ / ٩٢١ ونشرت فى الديوان ص ٣٤ ولاحظ ص ٦٣ من الديوان

(٦) الزمان ٢٧ / ١ / ٩٢٨ لاحظ جريدة العاصمة العدد ١٠٨ السنة الأولى ١٩٢٣ المقال الأفتتاحى (اعتماد الشعوب على نفسها) وغير ذلك من أعدادها و(المفيد) وكثيراً من الجرائد التى كانت تصدر فى هذه الفترة .

(٧) جريدة العاصمة ١٩٩ فى ٤ تموز ١٩٢٣ ولاحظ قصيدة حافظ جميل فى جريدة الاستقلال العدد ١٦١ / ٣ / ٩٢٣ وقصيدة حمزة قفطان فى مجلة اليقين ١٨ / ١ / ١٩٢٣ .

وعدم مهادنة المحتل ومسامحته ، لأن التسامح معناه الرضا بالذل الذى حاق بالبلاد وأورثها الأحزان والآلام ، ولن يدفع المستعمر ، عن حمى الوطن غير لم الشمل والقوة والثبات لأن ضعف الشعب أغرى المحتل ، وقال العبيدى مؤيداً هذا الرأى :

أترى يبلغ المرام ضعيف ؟ ! إنما يبلغ القوى المراما
واتحاد القلوب أفضل قوس حين ترمى أيدى الكماة السهاما

ويعجب للشعب كيف يحتمل الذل والهوان وهو المعروف بصلابته فى سبيل حقه فقال :

ما عهدنا العراق يحمل ذلاً ويحابى نذلا ويحوى طغاما
إن ضعف النفوس أطمع فيه طالما الضعف أطمع الظلاما
وإذا لنت للئيم تولى وإذا ما غمزته ما استقاما[٨]

وإذا أراد الشعب أن يتحرر فعليه أن يأخذ حريته بقوته ، لأن المستعمر إذا ما أعطاك حريتك فسوف يمن بها عليك ، فعلى العراقيين أن يأخذوا اقتساراً من المستعمرين ، فقال البصير :

أنا يا رفاق لا أريد سلامتى فتذكرونى إن هلكت رفاق
إن لم تعش نفسى العزيزة حرة فلأسعين بها إلى الإزهاق
لأجاهرن بمانجن ضمائرى وليكثرنّ وسائل الإرهاق
هب أن رحمة آسرى ستكفنى أو لست أحمل منّة الإطلاق
فأشق من أسرى علىّ بأن أرى يد آسرى يوماً تحل وثاق[٩]

وإلى جانب الدعوة إلى محاربة المستعمر ، كانت دعوات إلى المهادنة وإلى التسامح مع المحتل ، فوقف محمد باقر الحلى يرد على هؤلاء المهادنين ويسخر منهم فى حفلة عودة بعض المنفيين السياسيين فقال :

---

(٨) جريدة البلاد العدد الصادر فى ١٣ كانون الأول ١٩٢٩ .

(٩) جريدة شط العرب ١٤/١/١٩٢٤ وقد ورد البيت الأخير فى (حقيقة الزهاوى) بغداد ١٩٤٧ ص ١٠٩

فاشق من ويلات أسرى أن أرى يد آسرى يوما تفك وثاق

ولاحظ قصيدة عبد القادر الزهاوى فى جريدة الأمل العد ٢١ / ١ / ١٩٢٣ وقصيدة الجواهرى فى الفلاح العدد ٢٣ / ٨ أيلول / ١٩٢١ .

قالوا لنا اعتدلوا فى نهجكم أفلا قالوا انصفوا وحقوق الشعب تغتصب
ما الاعتدال تجـــاه الاعتداء سوى جبن ، يحسّنه للقائـــل الرهب[١٠]

وبعد أن صادقت الحكومة على المعاهدة فى ١٠ تشرين الأول سنة ١٩٢٢ . تركت أمر إبرامها للمجلس التأسيسى فقد كانت تشعر بعظم المسئولية ووطأة هذه المعاهدة على الشعب وقد أيد هذه الرغبة المعتمد السامى البريطانى فقد أراد إضفاء صبغة شرعية على المعاهدة وقد نُصَّ فى المعاهدة على وجوب مصادقة المجلس التأسيسى عليها .

بدأت الجهود تبذل لتحول دون تصديق هذه المعاهدة وأول عمل قام به الوطنيون ، هو مقاطعة الانتخابات للمجلس التأسيسى ، ولكن الحكومة حاربت الذين سعوا فى مقاطعة الانتخابات لتقضى على حركة المقاومة ، لكنها لم تفلح ، فقد انضم رجال الدين إلى المقاطعة وأفتوا بتحريم الانتخابات[١١] حتى يحولوا دون انتخاب مجلس يلزمهم بمعاهدة حورت عن صك الانتداب ، ثم إن السلطات الاستعمارية لم تكن واضحة المقاصد إزاء العراق ، ففى الوقت الذى تنادى فيه بالحرية والاستقلال ، والدعوة لتكوين حكومة وطنية دستورية ، تغلق الأحزاب وتعطل الصحف ، وتنفى أبناء الوطن لأنهم يشتغلون من أجل حريتهم واستقلالهم[١٢] تفعل كل ذلك دون أى ضمان أو حتى إيضاح لأعمالها ، ولو أرادت أن تعطى الضمانات والوعود ، ففى تجارب العراقيين ما يمنعهم من تصديق هذه الوعود والضمانات ، لذلك تعرقلت الانتخابات وتعثرت طويلاً ، وقد شعر نفر من أبناء البلاد بأن الانتخابات سوف تتم ، والانتخابات فرصة لإدخال بعض العناصر المناوئة للاستعمار ، ووجودهم داخل المجلس التأسيسى يؤثر أكثر من وجودهم خارج المجلس لصفتهم الشرعية ، وتأثيرهم المباشر على المعاهدة لتعديل بنودها لصالح العراق ، الذى قد يضمن استقلال العراق ويؤدى إلى تفاهم مع بريطانيا ، ويضمن مصالحها فى الشرق الأدنى ، وقد أطمع دخول بريطانيا مع العراق فى معاهدة بعض الوطنيين فظنوه أصبح نداً لها ، فخدعت بريطانيا جماعة من

(١٠) الفلاح العدد الاول ٧ / ٥ تموز ٩٢١ بمناسبة عودة السيد نور السيد علوان.

(١١) أصدر رجال الدين فتوى بتحريم الانتخابات قالوا فيها (قد حكمنا بحرمة الانتخابات وأن الداخل فيها محارب لله ورسوله وللأئمة الطاهرين — ص . .) وقد زاد عليها الشيخ مهدى الخالصى (وأن لا يدفن فى مقابر المسلمين . .) العراق فى دورى الاحتلال والانتداب ص ٢٨ جـ ٢.

(١٢) جريدة العاصمة مقال بتوقيع (ع . صميم) العدد ١٦٨ صدر فى ٢٣ من آيار ١٩٢٣ ولاحظ أعمال المندوب السامى فى (ذكرى فيصل الأول) لمحمد عبد الحسين ص ٥٤ (بغداد ١٩٣٣) ، والعراق فى دورى الاحتلال والانتداب ص ١٤ جـ ٢.

الوطنيين الذين اعتبروا المعاهدة تقدماً محسوساً فى العلاقات البريطانية [١٣] وفاتهم أن العراق لا يزال مستعمراً وتعتبره عصبة الأمم تحت الانتداب البريطانى ، كما ظن بعض المتفائلين بالانتخابات أن رفض المعاهدة من مجلس عراقى بصورة رسمية سيزيد من القوى المعنوية للشعب داخل العراق وخارج العراق ، فيجب أن تدخل عناصر وطنية مهمة فى المجلس التأسيسى لتقف فى وجه المعاهدة لتحقيق بعض مصالح البلاد . فكان انقساماً فى الرأى أعطى القوة للمستعمر فضرب المعارضين وقاومهم بعنف ، وأجرى الانتخابات تحت سيطرته وإرادته . . لكن الحكومة فقدت ثقة الشعب منذ أول يوم من أيام الانتخابات . .

ولم تعد له هذه الثقة بأى انتخابات جرت بعد ذلك . فشلت الخطوة الأولى من مقاطعة الانتخابات ، غير أن الوطنيين لم يفشلوا فى محاولة أخرى هى الوقوف أمام المعاهدة حتى يتم تصديقها من قبل المجلس التأسيسى لاستبدال صك الانتداب بمعاهدة جرت البلاد إلى الويلات والمصائب . قالت جريدة الاستقلال فى مقال افتتاحى لها (إننا نريد أن يكون الميدان الذى ستدخلنا إياه المعاهدة ميدان سلم دائم . لا ساحة عراك تعكر ود الدولتين المتعاهدتين ، ميدان استقلال تام لا تشوبه شائبة الوصاية . وصرح حرية مطلقة لا يقيدها غلّ الانتداب . وبكلمة واحدة إننا نريد أن يكون ذلك الميدان ميدان استقلال ناجز لا سوق نخاسين ، سوق تمضى فيه أمة بأسرها صك رقها وعبوديتها . .)[١٤]

وكانت الجريدة واضحة كل الوضوح فقد عبرت عن أهداف الوطنيين ووضعت الخطوط العريضة لأهدافهم فقالت : هذا هو الميدان الذى نريد أن تدخلنا إياه المعاهدة وذلك ما تريده الأمة بأجمعها وأننا نرجو أن يضعه المتعاقدون نصب أعينهم وأن يتذكروا عند بحثهم فى كل مادة من مواد المعاهدة . .)

كان المستعمر يبذل جهداً كبيراً فى إمرار المعاهدة ، وقد شنّ حملة لتأييد هذا التصديق ، بيد أن الشعب كان يقظاً ، فإن رجال الفكر كانوا للمستعمر بالمرصاد . فكانوا يعقدون الاجتماعات لبحث نصوص المعاهدة ، وإيضاح الأضرار التى تعود على البلاد من جرائها ، وكان المجلس التأسيسى يتأثر بالرأى العام الخارجى الطامح بالحرية والاستقلال ، وبالرغم

---

(١٣) لاحظ جريدة العاصمة المقالين الافتتاحيين ١٦٨ و ١٦٩ السنة الأولى ١٩٢٣.

(١٤) جريدة الاستقلال العدد ٥٣ السنة ١٩٢٢ والعدد ٤٠٦ السنة الرابعة لاحظ مقالين لياسين الهاشمى وأمين الزهاوى وقد كان سلمان الشيخ داود من المؤيدين للمعاهدة لاحظ مقاله المنشور فى جريدة العراق فى الخامس من نيسان ١٩٢٤.

مما بذله المستعمر من جهود تارة بالقسوة وطوراً باللين لم يقدر على أن يغير وجهة نظر الشعب .

وكان من جراء هذا الوعى أن تجمهر الشعب حول بناية البرلمان وأغلقت الحوانيت ، حتى اضطرت السلطات إلى إطلاق النار لفض هذه المظاهرة . . ولئن قضت على المظاهرة وتفرق شمل الشعب ، فقد تركت وراءها أثراً كبيراً وفى نفوس أبناء الشعب عزماً متوقداً (١٥) .

---

(١٥) يلاحظ فى جريدة العراق ١٣٢٤ / ٤ / ١٩٢٤ بلاغ وزارة الداخلية وبيان رئيس المجلس التأسيسى وفى أعدادها لهذا الشهر ذكر لما حدث فى العراق من جراء الانتخابات .

٣

الشعر والمعاهدات والساسة

جنّد الاستعمار الإنكليزى كل قواه المادية والمعنوية وبذل مجهوداً جباراً فى سبيل تصديق المعاهدة الأولى ، والمعاهدات التى تلتها ، ليوهم الرأى العام العالمى بأن المعاهدة وقعت من هيئة منتخبة لها صفتها الشرعية ، ولكن الشعب كان يقظاً وكانت طلائع النهضة الفكرية متوقدة ، تنير لهم السبيل إلى الحرية والاستقلال والأمن والرخاء . وقد اتخذ الزعماء طرقاً شتى ليحولوا دون وضع طوق المعاهدة فى عنق الشعب ، وكان الشعراء أشد الناس إحساساً ، وأسرعهم تلبية للواجب المقدس ، فقد شعروا شعوراً صادقاً بالمسئولية الملقاة على عاتقهم ، وصار هذا الواجب جزءاً من حياة الشاعر وتفكيره ، فكان يحذر النواب مرة من المصير المحتوم الذى سيلاقونه متى غضب الشعب عليهم وسحب ثقته ورضاه منهم ، وتارة يسخر من المعاهدة التى تعطى العراق مظاهر الاستقلال الجوفاء ، وآونة يسخر من الوزراء والحكومة التى جاءت فى أثر المعاهدة . والحق أن هذه الفترة كانت من أخصب فترات الشعر السياسى ، ومن الوسائل التى التجأ إليها الشاعر تهديد نائب المجلس التأسيسى متى صادق على قيود الاستعمار بغضب الشعب وعقابه ، وأنه لن يرحم نواباً جروه إلى الذل والهوان ، ولن يرأف ساعة الحساب بمن أذلوه ، فقال عبد الرحمن البناء :

يا أيها النائب المنـــدوب عن أمم ... ألقت إليـــه مقاليـــد التدابـــير
احذر مناقشة الشعب الحساب غدا ... من دون عذر وإشفاق وتوقـــير
يوماً به الشعب يبدى الغيظ من أسفٍ ... هناك تقرع فيه سن مأســـور
إن الصـــدور براكين إذا انفجرت ... فى الأرض تنسف فيها كل معمور[1]

وقد كانت حملات الوطنيين متواصلة أهبت صدر الشعب عامة ، فسرت روح الحماس

---

(١) جريدة الاستقلال العدد ٤١٣ / ٤ / ١٩٢٤ . ولاحظ قصيدتى حمزة قفطان فى العدد ٣٩٧ ومحمد خليل من العمارة فى العدد ٤٠١ من السنة نفسها .

إلى داخل المجلس التأسيسى ، بعد أن ظن الحاكمون بأن الأكثرية الساحقة من الأعضاء بجانبهم وفى جانب المعاهدة ، وفى المصادقة عليها يكسبون حقاً شرعياً فى البقاء على أرض العراق . وأوهمهم بذلك تلك الجهود التى بذلت فى التمهيد للانتخابات ودخول بعض العناصر الإقطاعية ورؤساء العشائر ، ومن الموالين لهم ، لكن إلهاب الرأى العام من قبل قوى المعارضة الوطنية الثائرة فوت عليهم ما كانوا يعتقدون ، فقد أخذت ساعة التوقيع على المعاهدة تتأخر يوماً بعد يوم . حتى عيل صبر المندوب السامى السر هنرى دوبس ، ولم تجد جميع المحاولات السلمية التى بذلت من وراء الستار فتيلا . فأخذ المندوب السامى يضغط بصراحة على المسئولين ويأمر بوجوب التصديق على المعاهدة ، وبلغت به الجرأة أن عين يوم إبرامها (٢) وإلا فسيعلن الحكم المباشر فى البلاد ، ولما أجّل المجلس البت فيها إلى يوم تال ، هاله الأمر ، وذهب إلى الملك فيصل وطلب دعوة المجلس ليلا ، لأن التأجيل معناه رفض المعاهدة . وقد دعى المجلس ليلا فلم يحضر الاجتماع سوى ٦٨ نائباً من ١٠٠ نائب وقبيل منتصف الليل تم التصديق على المعاهدة (٣) فتحول الانتداب إلى المعاهدة .

وقد ظن الاستعمار بأنه سيخدع العراقيين بتحريره صك الانتداب إلى معاهدة وسيرضى العراقيين بثوب الانتداب الجديد ، بيد أن الخيبة شملت حتى الملك فيصل الذى سعى سعيـاً متواصلا فى عقد المعاهدة ، فرأى بأم عينيه كيف ضاع استقلال العراق (٤) . وناء الشعب بقيود المعاهدة وزاد الألم فى النفوس ظهور مشكلة الموصل التى انتهت بضمها إلى العراق على شرط تمديد أجل المعاهدة إلى خمس وعشرين سنة (٥) . وقد مدت المعاهدة فعلا . فلم يكن أمام العراقيين غير استئناف النضال من جديد (٦) .

أعطت المعاهدة الجديدة الحكم للعراق ليؤلف حكومة وطنية لها ملك ودستور وبرلمان . . أعطته كل مظاهر الحكم الديمقراطى ولكن كانت هذه المظاهر معطلة عن العمل الفعلى

---

(٢) عين المندوب السامى اليوم العاشر من شهر حزيران سنة ١٩٢٤ لإبرام المعاهدة.

(٣) وافق ٣٧ وخالف ٢٤ وامتنع عن التصويت ٨ وكان الغائبون ٣١ – مذكرات المجلس التأسيسى ص ٤٣٥ – ٤٣٩

(٤) تحرر العراق من الانتداب – مجيد خدورى ص ٥ بغداد ١٩٣٥.

(٥) لاحظ ما قيل من الشعر فى جريدة الاستقلال الأعداد ٢٥ و٢٩١ السنة الرابعة و٦٧٥ و٥٥٧ السنة الخامسة و ١٣١٠ السنة الثامنة . وقد كتب الدكتور فاضل حسين رسالة عن (مشكلة الموصل) طبعت فى بغداد ١٩٥٥ تعتبر خير ما كتب عن المشكلة .

(٦) ما كانت بريطانيا تريد إنهاء الانتداب عن العراق فكان من جراء ذلك الصدام الذى أدى إلى رفض معاهدة ١٩٢٧ والتى وضعت بعد معاهدة ١٩٢٦ فانضمت بموجبها الموصل إلى العراق .
لاحظ (مشكلة الموصل) الفصل السادس ١٧٦ و ٢٣٧.

لأن السلطات البريطانية هى الحاكمة حسب نصوص المعاهدة الأخرى ، التى نصت على وجوب الاستشارة التامة ، وهذا تدخل صريح فى سيادة العراق الوطنية الذى قوبل بالسخرية اللاذعة من قبل الشعراء . .

كان الشعراء ينظرون إلى الوضع العام العراقى والالم يهصر قلوبهم ونفوسهم فيظهر عليهم طابع الألم ظاهراً . ويبدو تارة بشكل سخرية لاذعة من الحكومة ووزرائها ونوابها ، وطوراً يظهر بالرثاء لهؤلاء الذين جعلوا من أنفسهم ممثلين على مسرح السياسة ، وأصبح المستشار الإنكليزى فيها المخرج والملقن ، وآونة نجد الشاعر متألماً جاداً يحاول معالجة الأمور برزانة وتعقل ويدفع الشعب إلى نبذ هذه المظاهر البراقة الكاذبة التى تعطى الاستعمار السيطرة الفعلية ، وقد كان الرصافى سباقا إلى تسجيل مظاهر هذا النضال ورسم صورة خالدة للتاريخ فى العراق فوقف ساخراً وقال :

هذى حكومتنا وكل شموخهـــا ... كذب ، وكل صنيعهـــا متكلف
غشت مظاهرهـــا وموّه وجههـــا ... فجميـــع ما فيهـــا بهـارج زيف
وجهـــان فيهـا باطن متستر ... للأجنبي وظاهـــــر متكشف

ويعدد هذه المظاهر الخلابة الكاذبة التى حاول الاستعمار أن يخدع بها العراقيين فقال :

علم ودستور ومجلس أمـــــة ... كل عن المعنى الصحيح محـــرف
أسماء ليس لنا سوى ألفاظهـــا ... أما معانيها فليست تعـــــرف
من يقرأ الدستور يعلم أنـــــه ... وفقاً لصك الانتداب مصنف
من ينظر العلم المرفـــــرف يُلفـه ... فى عز غير بنى البـــلاد يرفـرف
من يأتِ مجلسنا يصـــدق أنـــه ... لمـــــراد غير النـــاخبين مؤلف
من يأت مطـــرد الوزارة يلفهـا ... بقيـــود أهل الاستشارة ترسف(٧)

والقصيدة من غرر الشعر السياسى وأصدق مسجل للعهد الذى نظمت فيه . ولم يكتف الرصافى برسم صوره ، وتسجيل حوادثه إنما كان يحس بالواجب الملقى على عاتقه فى محاربة هذا الدخيل ، وهز حمية المواطنين ويصف الواقع عارياً أمام الوزراء ليعرفوا موقفهم وعملهم فى هذه الدولة . فهم دمى يحركها المستعمر لأية وجهة يريدها ، ليست

(٧) ديوان الرصافى ص ٤٥٣

لهم سيطرة على وزاراتهم ، يستمدون الصولة والسطوة كالآلات الصماء . لذلك خوفهم الرصاص من الأجنبي ومن المصير الأسود الحالك الذى ينتظرهم عندما يثور الشعب عليهم فستكون ثورته عارمة لن تبقى للمستعمرين والمتحكمين بقية ، لأن الشعب هو الحاكم الوحيد الذى له السلطان الفعلى على نفسه . وإن استكان هذا الشعب فله يوم آخر يأخذ فيه استقلاله لأنه شعب عربى شريف أبى لم يرض بالاستعمار والذل ولن يرضى بالمستعمرين وأذنابهم ولن يتخلف عن ساحة الشرف والجهاد فقال :

إن دام هـذا فى البـلاد فإنـه ... بدوامـه لسيوفنـا مسترعفُ
لابد من يومٍ يطـول عليكم ... فيه الحساب ، كما يطول الموقفُ
فهنا لكم لم يغـن شيئاً عنكم ... لسن تقول ، ولا عيون تـذرفُ
وإذا دعـا داعى البـلاد إلى الوغى ... أتظـن أن هنـاك من يتخلف
أيذل قـوم ناهضون وعنـدهم ... شرف يعزّز جانبيـه المرهـف
كم من نواصٍ للعـدا سنجـزها ... ولحى بأيدى الثائـرين ستنتف

وتبدو سخرية العبيدى فى المتناقضات الموجودة فى نظام الحكم مع بعضها . فالبلد مستعمر سيطرت عليه الفوضى يئن تحت الاستعمار ، متأخر ، ولكنهم يدعون بأنه مستقل ذو سيادة يسوده النظام والحرية والاستقلال ، ولكن هذا السيد الحر يقسر على عقد معاهدة لاستعباده . فقال :

نحن فى معجم السياسةِ شـعب ... رب ملكٍ وما ملكنا حُطـاما
نحن فى معجم السياسة شـعب ... ذو نظـام وما رسينا نظامـا
نحن فى معجم السياسـة أحـرا ... ر ، ولكنا قاصريـن يتـامى
فإذا الشعب كان غـير رشيدٍ ... كيف يدعى لعقـد عهد لزاما

وتبدو ثورة العبيدى واضحة عندما يرى القيود التى كبلت شعبه وأذلته ، فما استطاع المقاومة المسلحة ، ثم تحولت هذه الثورة إلى آلام تنخر فى النفوس ، وظهرت شعراً يطفح بالتهكم المرير على الحليفة التى تقيد حليفتها لتستديم صداقتها وحلفها لدولة صغيرة ولشعب متوثب يريد الانطلاق والحرية . . أهذه هى الصداقة بين ندين متحالفين أم أنها سيطرة الذئب الشرس الذى يدس السم بالعسل ! ؟

خفى أيهـا الحليفـة عنا . . ... من قيـود أصبحن عاراً وذامـا

أثقلت كاهلا وأدمت قلـــوباً وأذلت من النفـــوس كرامـا
كلما فكـــر العـــراق فيهـــا لعن الـــدار والحمـــى والمقامـا
طليت عسجداً ودفت صـــديداً وأديفت سماً وصبت مـــداما (٨)

أضفت المشاكل السياسية على الجو الشعبي العام جوًّا من الحزن واليأس والكآبة ، وران على العراق التشاؤم فطفح الأدب بالألم والنقمة والثورة . فقد وجد العراقيون أنفسهم تحت نظام من الحكم جديد . فقد كانوا خلال فترة الاحتلال والانتداب يحاربون الإنكليز وجهاً لوجه ، أما اليوم فقد وجدوا الحكم الإنكليزى قد تقنع بقناع عراقى . فحال بينهم وبين العدو الأصلى .

بقى الناس فى حيرة وقلق واضطراب نفسى كان من جرائه الاضطراب فى المثل وظهور طبقة النهّازين الذين لا يردعهم رادع من وطن أو خلق ، همهم الاستفادة على حساب الشعب وحساب إخوانهم الذين تركوا فى ساحة الشرف والنضال . ألم يكن قسم كبير من هؤلاء يناضلون مع المناضلين ولكنهم هادنوا المستعمر راضين بالمظاهر الكاذبة والوظائف الموهومة ، وبذلك وضعوا سلاحهم وانثنوا عن الكفاح ؟ وياليتهم وقفوا عند هذا الحد بل أصبحوا شوكة فى قلوب المناضلين يردونهم عن الاستقلال ويدافعونهم عن الحرية ويضعفون معنوية الشعب . ففتوا فى عضد القضية المشتركة التى مات من أجلها الشهداء ، ونفى الأحرار وسجن الأبطال وشرد من شرد وشنق من شنق . . إن تغليب المصلحة الفردية على مصلحة المجموع كان خداعاً وخيانة ورياء ، لم يكن يتوقعه المخلصون . ولئن رضيت هذه القلة بالمجد الزائل والجاه الكاذب الموقت ، ونسيت مصالح شعبها فإن أبناء الوطن المخلصين أكثر من هؤلاء المنشقين المارقين . فقد واصلوا الكفاح لنيل قسط من الاستقلال والحرية ، واعتبروا هؤلاء المنشقين جزءاً من المستعمرين يجب أن يحاربوا مثلهم ويصب عليهم سوط العذاب فلئن غلبهم الإنكليز على بعض إخوانهم بالقوة مرة ، وبالرشوة تارة ، وبالحيلة طوراً ، وبضمان مصالح الإقطاعيين ورؤساء العشائر ، فإن حقل الوطن واسع وميدان الجهاد حافل بالمخلصين . وكان من جراء خذل هؤلاء ازدياد الرغبة فى استخلاص حقوق الشعب من الدخيل المستعمر .

وقد تجلى ذلك واضحاً فى الشعر العربى ، فوصف حال الشعب وصفاً دقيقاً صادقاً بعيداً عن بهارج الكلام وزخرف القول وتجلت الصورة بعيدة عن روح التعقيد اللفظى ،

(٨) جريدة البلاد العدد الصادر فى ١٣ كانون الأول ديسمبر ١٩٢٩

ومحاكاة القصائد القديمة ، إذ لم يجد الشعراء فى نفوسهم مجالا حيوياً يتجاوب وأحاسيسهم الجديدة التى تحيط بهم وتهددهم فى كرامتهم وعزتهم . . فكان الألم عميقاً حاراً والشعور دافقاً فياضاً . . بعد أن وجد الشاعر نفسه جزءاً من المجموع تواجهه نفس المشاكل التى تواجه الشعب بأجمعه ، فرأى فى نفسه الشعب والشعب فى نفسه ، فأخذ يصرخ متحدياً قوى الانتداب وأذنابه من بنى جلدته مطالباً بالإصلاح ثائراً على تدهور الحال محتجاً على ما وصلت إليه بلاده . ومتى اتفقت مصالح الشاعر مع مصالح الشعب ومتى شعر الشاعر بشعور الشعب وعكس مصالحه فقد سار فى طريقه الذى يريده الشعب وفاز بالمجد والشهرة والتمجيد والخلود . لذلك لم يكن الشعراء يريدون إبراز صورة فنية من صور الاحتلال وموالاة إخوانهم للاستعمار لتعجب الناقد فيتحسن جمال الخيال فيها ، ورقة الأسلوب ، وعذوبة البيان ، ورصانة العبارة ، إنما كانوا يحاولون إبراز مشكلات الوطن السياسية والاجتماعية ، بأسلوب سهل . ليرسل الشاعر إشعاعاً من روحه ، وصرخة من قلبه ليوقظ الشعب الذى لا يزال يعيش فى الديجور . ففاضت قصائد العصر بالحماس ، واضطرمت بالثورة ، تصب فى قوالب رائعة ، وأهم الكلمات التى ظهرت فى الشعر هى : الاستشارة ، المستشار ، الانتداب ، الدخيل ، الغربى ، الحرية ، الاستقلال التام ، الكفاح ، النضال ، السيادة ، الأجنبى ، كرسى الوزارة ، النواب ، المجلس وغير ذلك من الكلمات التى جاءت مع تشكيل الحكم فى العراق .

وهناك ظاهرة جديرة بالتسجيل هى بروز عدد كبير من الشعراء فى حقل النضال السياسى فى هذه الفترة . وهذه الظاهرة تدل على رهافة الشعور العربى فى العراق وإعجاب العراقيين بالشعر أكثر من إعجابهم بالنثر . وقد همدت حماس هؤلاء الشعراء لما انتهت هذه الفترة . فإذا تصفحنا جرائد هذه الفترة نراها طافحة بالشعر القومى السياسى[٩] وإن اختلف الشعراء فى التعبير بالنسبة لثقافة الشاعر ومدى استيعابه للتجربة الشعرية ، والظاهرة الثانية هى طغيان السياسة على كل شىء فى حياة الشعب ، فقد أعطيت للحياة السياسية الأهمية الأولى فوق قضاياه الاقتصادية والاجتماعية والعلمية .

وظاهرة ثالثة جديرة بالتسجيل أن الحكومة الإنكليزية قد منحت من الحرية ما أمكن

---

(٩) لاحظ من جرائد هذه الفترة ومجلاتها : النجف ، المنبر العام ، العراق ، الأخلاق ، الزمان ، النهضة العراقية ، بغداد ، الحيرة ، النور ، بطائح العراق ، البلاد ، صدى الاستقلال ، الطرائف المصورة ، الجهاد ، نداء الشعب ، المستقبل ، وصدى الوطن .

بها للعراقيين أن يعبروا عن رغباتهم تعبيراً صادقاً لم نعهده وياللأسف الشديد فى أدوار الحكومات العراقية المتتابعة بعد معاهدة ١٩٣٠ ، وقد كانت هذه الحرية فى ظل الاحتلال والانتداب أوسع مجالا من الحرية فى ظل الحكم الذى شارك فيه العراقيون الأجنبى إلا إذا استثنيت فترات صغيرة تسلم فيها الحكم جماعة من أبناء الشعب وأرادوه أن يعبر عن رغباته ، ولكن سرعان ما تكبت حرية الشعب ويساق الأحرار إلى السجون باتهامات هو برىء منها . وأروى شخصاً كتب فى جريدة عشر معشار ما كتب فى فترة الاحتلال فى حاكم من حكام العراق ولم يؤذَّ فى رزقه وجسمه وأبنائه وذويه . لذلك كانت تضحيات الأدباء كبيرة ، ضحوا بسعادتهم وراحتهم وأرواحهم فى سبيل مثلهم العليا بكل اطمئنان دون أن يمنوا على الشعب ؛ ومن هؤلاء كان شاعرنا معروف عبد الغنى الرصافى الذى قال ساخراً :

تجوز سيادة الهندى فينا ... وأما ابن البلاد فلا يسود
إذاً فالهند أشرف من بلادى ... وأشرف من بنى قومى الهنود
فكم عند الحكومة من رجال ... نراهم سادة وهم عبيد
كلاب للأجانب هم ولكن ... على أبناء جلدتهم أسود
وليس الإنكليز بمنقذينا ... وإن كتبت لنا منهم عهود (١٠)

إنه القول الفصل بأن الاستعمار لن يخرج من بلادنا ، وإن كتب العهود إذا لم يطرده أبناء الشعب لأنه متنعم بالخيرات رافل بالنعيم ، وتارك أبناء البلاد فى جوع ، وعرى ، وفقر ، إلا أولئك الذين اتخذوا من أنفسهم دمى يحركها كما يشاء . قال محمود الملاح :

بلاد غريب الدار فيها منعم ... ولكن على أهل البلاد مقابر
وتحكم فيها الهند والهند أعبد ... فلو لطمت منا الجباه حرائر
تماثيل من طين تقام خديعة ... ومن لم يصخ للطين فهو مكابر(١١)

الاستشارة والوزارة :

كانت إحدى بلايا البلاد فى هذه الفترة ، الحكم الأجنبى ، الذى ألبس وجهاً وطنياً . فالمظاهر تدل على وجود حكم وطنى ولكن الواقع أن الأجنبى هو الذى كان يحرك دفة الأمور بوساطة المستشارين الذين دسهم فى أرجاء هذا الحكم . لذلك لم يكن للوزراء أو النواب

(١٠) ديوان الرصافى ٤٥٢ .

(١١) جريدة النهضة العراقية ٢٩٧ / ٢ / ١٩٢٩ .

أو جميع المواطنين من رأى إنما هم آلات فى الدولة يحركها المستشارون ، فحيل دون الشعب وبين المستعمر بستار وزارة عراقية لا تقدر أن تنفع البلاد ما دام المستشارون لا يريدون ذلك . فوجه الشعراء اهتمامهم إلى هؤلاء المستشارين ، وسخروا من الوزراء الذين تصرف لهم أموال البلاد ويحل قضاياهم الأجنبي . كانت سخرية الشعراء لاذعة وتهكمهم مريراً موجعاً يطفح بالنقمة على هؤلاء الذين أصبحوا مطايا للمستعمر ويموج بالسخط على السياسة البريطانية التى تعبث بمقدرات البلد وتزيد فى تعقيد الأمور فجعلت البلد عبداً تسخره كيفما تريد باسم هؤلاء الوزراء الذين صدقوا أنهم الحاكمون ، فقال محمد باقر الشبيبي :

مما يزيد المشكلات تعقداً	أن ليس ثمة من يحل ويعقد
قالوا استقلت فى البلاد حكومة	فضحكت أن قالوا ولم يتأكدوا
أحكومة والاستشارة ربها	وحكومة فيها المشاور يعبد
الحكم حكمهم بغير منازع	والأمر مصدره هم والمورد
المستشار هو الذى شرب الطلى	فعلام يا هذا الوزير تعربد

وقد آلم وضع الوزراء واستخذاؤهم للسلطات الإنكليزية معروف الرصافى واحتقر الذين سكروا غروراً راضين باسم الوزارة دون أن يقدموا لهذا البلد خيراً حتى خجلت كراسيهم من هذا الاستخذاء والغرور فقال يؤنبهم :

بالله يا وزراءنا ما بالكم	إن نحن جادلناكم لم تنصفوا
وكأن واحدكم لفرط غروره	ثمل تميل بجانبيه القرقف
أفتقنعون من الحكومة باسمها	ويفوتكم فى الأمر أن تتصرفوا
هذى كراسى الوزارة تحتكم	كادت لفرط حيائها تتقصف
أنتم عليها والأجانب فوقكم	كل بسلطته عليكم مشرف
أيعد فخراً للوزير جلوسه	فرحاً على الكرسى وهو مكتف[١٢]

وزخر شعر الرصافى فى هذه الفترة بتأنيب النواب والوزراء وجميع الذين تولوا السلطات العامة . وتأنيبه مشاب بالتهكم المرير الموجع فيصف الوزير كذيل حماره ليس له من سلطان ولا حول وإنما هو صنم تشيع فيه الذلة والصغار فيقول :

---

(١٢) ديوان الرصافى ص ٤٥٤ .

ووزيـــر ملحـــق كالـــذ يل فى عجـــز الحمـــاره
ذنب أصبـــح للحـــكم بـــه أقبـــح شـــاره

ويذكر سبب تهكمه عليه لأنه لا عمل له إلا أن يقبض راتبه فى نهاية الشهر :

فوزيـر القـــوم لا يعمـــل مـــن غـــير إشـــاره
وهـــو لا يملك أمـــراً غـــير كرسى الـــوزاره
يأخـــذ الـــراتب إمـــا بلـــغ الشهر ســـراره (١٣)

وقال الرصافى صراحة إن الوزراء جماعة من أبناء الشعب آثروا مصالح الأجنبى على مصالح أبناء الوطن ولا يستوزر الإنكليز العراق المخلص لأنه سوف يعمل لصالح وطنه وبلده ، لذلك فإن الوزراء مخلصون للمصالح البريطانية فقال :

إن الوزارة – لا أبالك – عنـدنا ثوب يفصـل فى معامـل لنـدنا
لا يرتـــديه سوى امـرئ أضحى له طبعاً ، وداد الإنكليز ، وديـــدنا (١٤)

ووقف محمود الملاح موقف الناصح الواعظ مبيناً أثر المستشار فى تعقيد أمور الشعب ، ويعزو قوة المستشار إلى تخاذل أبناء الشعب بأحزابهم ، ولو أنهم وحدوا صفوفهم لطردوا المستعمر شر طردة . لكن النفع الذاتى وحب الكراسى أغريا بعض أبناء البلد فضحى فى سبيلها بكل مصالح الشعب فقال :

الاستشارة قيـــد بين أرجلنـــا وكيف يمشى الفتى فى حـــال تقييد
كم أمـــة دونهـــا فى الشرق قد نجحت ونحن معها بحـال غـير مودود
المستشار الـــذى تجلى به عقـــد لا من يجىء لمحلـــول بمعقـــود
وما التخاذل فى الأحـــزاب غير يد يدسهـا طامع يسعى لتبديـــد
فوحدوا خطوكم يا قـــوم واعتقـــدوا أن النجـــاح محـال دون توحيـــد

(١٣) ديوان الرصافى ص ٤٥٦ ، والسرار الظلام الذى لا يظهر فيه القمر ويكون القمر فى المحاق ، كناية عن نهاية الشهر لاحظ الديوان ص ٤٢٩ قصيدته بمناسبة قدوم كراين سنة ١٩٢٩ .

(١٤) ديوان الرصافى ص ٤٩٦ والطريف أن يلجأ الرصافى إلى المثل العراقى المستهجن (الصيت للنورة والعمل للزرنيخ) فيطبقه على المستشار وعلى الوزير فيقول بتهكم لاذع :

ألا أبلغوا عنـــى الـــوزير مقالـــة له بينها لو كان يخجل توبيـــخ
أراك بحمـــام الـــوزارة نـــورة وأما جناب المستشار فزرنيخ

إن الكبير كبير النفس من صغـرت ... فى عينه خشب قامت بتسفيـد
لا ترغبوا فى كراسى فى نعومتهـا ... فنى النعومة شوك غـير مخضـود
تلك المقاعد كم غـرت أخا ثقة ... كما تغـر ثنايـا الخـرد الغيد
إن الكراسى أنصـاب مهندمة ... فيها تضحى بلاد باسم معبـود (١٥)

وكثيرون الذين خانوا بلادهم فى سبيل مطامعهم الفردية وجشعهم . فأصبحوا دمى يحركها الأجنبي وهو يسخر منهم ، فقد تهالكوا على رضاه فارتموا تحت أقدامه معتبرين أنفسهم جزءاً من هذا الأجنبي الذى دخل بلادهم ولا تربطه بهم رابطة اللغة أو الدين أو العقيدة أو التأريخ أو الجنس غير الاستعمار واستغلال خيرات البلاد . فهم خدم لهذا المستعمر لا يخجلون من خدمته ويتفاخرون بأنهم من محاسيبه فقال على الخطيب ساخراً متهكما وسخر معه الشعب والتاريخ والأمم الواعية المستقلة :

وللحليفـة أعـوان تؤازرهـم ... منا علينا وقد أضحـوا لهم خدما
لا ينكسون مـن النكـراء هامتهم ... فلا يرون بها بأساً ولا غممـا

ومن أذل نفسه فى سبيل مطامعه وغدا مطية للأجنبي يرى خيره ضماناً لمصلحته الفردية زاعماً أن ذلك فى سبيل الشعب ، وما هو إلا دمية تؤدى مايطلب إليها دون تفكير ، تنعم بالمظاهر من مال زائل وألقاب كاذبة :

والقابضـون زمـام الأمـر أشغلهم ... عنا المطامع حتى جاوزوا النهمـا
مستسلمـون ضعاف فى مراكـزهم ... ما قدموا قدماً أو أخـروا قـدما
دمـى تحركهـا أيـد مخبـأة ... فتضحك الشعب والتـاريخ والأمما
ليهلك الشعب مادامت منـاصبهم ... مضمونة تقذف الألقاب والنعما (١٥ب)

وقد انفرد محمد مهدى البصير برأى بالنسبة للأكثرية الساحقة من الشعراء فهو لم يلق التبعة على الإنكليز وحدهم أو المستشارين من الإنكليز إنما ألقاها على كاهل الوزارة العراقية . فمن المفروض أن يكون الوزير مالكاً زمام أمور وزارته متصرفاً بشئونها قادراً على الهيمنة التامة وبذلك لن يكون للمستشار قيمة فى الوزارة ولن يتدخل فى أموره ، والرأى

(١٥) جريدة النهضة العراقية العدد ٣٢٠ السنة الثانية ١٩٢٩.
(١٥ب) جريدة النهضة العراقية ٣٠٤ / ٢ / ١٩٢٩ .

خيالى لا يمكن أن ينطبق على وزارة هذا العهد ، لأمور منها أن الذين جاءوا الوزارة هم من ذوى المصالح المشتركة مع الإنكليز أو أنهم بحاجة إلى العون الاقتصادى أو من الضعاف الذين خبرهم الإنكليز وسبروا أنفسهم ، إذ ليس من المعقول أن يأتى الإنكليز بوزير قوى معارض لسياستهم ، ولكن البصير أراد أن يدفع الوزراء إلى العمل ويخلق فيهم القوة والعزة والكرامة للمصاولة . فإذا اتفق هؤلاء الوزراء – وهذا خيال شاعر – فقد يأخذون الحكم بأيديهم وسيعم الإصلاح العراق ، والبصير أخذ يرد على الذين يعترضون عليه بأن المستشار سوف يضطرهم بقوته على الرضوخ إلى أوامره ونواهيه ولكن لم يجد برهاناً واحداً على وقوف الوزراء أمام رغبات المستشار والحد من رغباته . والحقيقة أن المثل العامة قد تفسخت ، فلو أجمع أبناء البلد على مقاطعة الوظائف وصمدوا أمام التهديد والسجون والموت لما تمكن الإنكليز من تطبيق خططهم الاستعمارية فى استقلال العراق . إن أكثر العراقيين مسئولون أمام التاريخ فى تشجيع المستعمر فى التدخل فى أمور بلادهم وهم أحرى باللوم وأجدر بالتقريع ، لأنهم لم يستأنفوا نضالهم وضعفت معنوياتهم ، مع نفع زائل ونعيم حائل فقد قال البصير من قصيدة ألقاها فى يوم افتتاح الحزب الوطنى ببغداد :

ما رسمنا للاستشارة حداً ... فلها العذر أن تجوز الحدودا
شغلت مركز القيادة منا ... إذ رضخنا لها فكنا جنودا
أتقولون إنها أكرهتنا ... فعملنا ما لا نراه سديدا
شكر الله سعيكم خبروني ... كم بذلتم فى كبحها مجهودا (١٦)

وقد عكست الجرائد العراقية الحيرة والوجوم اللذين هيمنا على ربوع العراق من الوضع الشاذ فى هذه الدولة الجديدة المستقلة وذات السيادة والتى لها برلمان ، ولكن لا يمكن لأبنائها أن يديروا دفة الأمور فيها . مع أن الوزراء مسئولون أمام البرلمان . فهم لا يصدرون أمراً إلا بموافقة المستشارين ، وقد قالت جريدة الزمان بصراحة إن البلاد مستعمرة وجاءت بالدليل بقولها (. . يقولون إن البلاد مستقلة وإن شئونها إنما تديرها حكومة وطنية . . والله يعلم أن البلاد مستعمرة لا مستقلة ، وكيف لا تكون كذلك وهذه جنود الإنكليز فيها وهذى طياراتهم محلقة فى سماء العراق صباح مساء . . وكيف تكون مستقلة ، وكلمة الإنكليز هى العليا

(١٦) جريدة العراق العدد ٢٥٧١ السنة التاسعة ١٩٢٨ وقد أعيد نشرها فى الطرائف المصورة العدد الرابع الصادر فى الحادى عشر من شهر أيار (مايو) سنة ١٩٤٠ .

فى الصغيرة والكبيرة . .) وتفند الجريدة المزاعم الإنكليزية بقولها (. . ومن الخطل فى الرأى أن نستمر على التغرير بأنفسنا فنزعم محالفة الإنكليز لنا إنما هى مستندة إلى الإخلاص المتبادل ، فالمعروف الذى لا يمكن تجاهله أن القوى إذا حالف ضعيفاً فهو إنما يسعى إلى مغنم يلبسه ثوب الحق وينفى عنه تهمة الغصب والاعتداء ، وبغير ذلك لا يمكن تعليل هذه . . . ولو بحثنا الحالات المتعددة التى سلمت فيها الوزارة العراقية . . لوجدنا أن أساس التسليم للإنكليز فى هذه البلاد إنما يرتكز على الإفراط فى الحذر لئلا يصطدم هذا الاستقلال المفلوج بسيطرة الإنكليز . .)[١٧] .

وهاجم محمد صالح بحر العلوم كل وزير وكل نائب واعتبره جاسوساً يخدم الأجنبي وما الراتب إلا أجرة عمله هذا فقال :

تجسس البعض منكم بخبرة ومهارة
ونال منا أجوراً عن جهده بجدارة
فى النيابة أجر وآخر فى الوزارة [١٨]

والطريف أن يجعل المستشار أبًا لهؤلاء وأمهم (المس بل) ويحدثنا عن نتيجة الذين لا يتفقون معهم فى الرأى ، فهى إما السجن ، أو النفى أو الشنق ، وبذلك يظهر لنا عصبية الأجانب العمياء ضد أبناء الوطن الذين لا يوالونهم ولا يرضون بحكمهم البغيض . . وقد جعل أول العقوبات للوطنيين السجن والنفى والاعتقال ، أما أولئك الذين يصرون على موقفهم الوطنى فجزاؤهم الموت :

وحكم من يتوقى طرق الحماية خنق
نفى وحجز وسجن وإن أصر فشنق

النواب :

غرّت مظاهر الحكم العامة بعض الشعراء ، لذلك اختلفوا بادئ الأمر فى معاملة نواب المجلس ، فحسبهم بعض الشعراء بأنهم قادرون على انتشال البلاد من التأخر ، والسير بها نحو معارج الرقى والتقدم ، ولهم من السلطة ما يقومون بها اعوجاج أمورها ، ويثقفون

(١٧) لاحظ المقال الافتتاحى لجريدة الزمان العدد ٤٤ السنة الثانية ١٩٢٨ .
(١٨) من مخطوطة بقلم الشاعر فى مكتبتى .

أودها . لأن المجالس النيابية فى الدولة المستقلة هى عمادها وركنها الأشد ، وساعدها الذى تعتمد عليه وقت الشدائد والملمات ، وهى ذات القول الفصل فى القضايا العامة ، فى شئون الدولة . ومتى اتفقت كلمة النواب فى أمر من الأمور فما على الدولة إلا الانصياع كرهاً أو رضاً لرغبتهم ، غير أن نواب العراق ، ويالالأسف ، لم يكونوا يمثلون الشعب العراقى ، فقد أخذوا يتنصلون من التبعة العظمى الملقاة على عواتقهم ، لأنهم لم يشعروا بأن الشعب قد جاء بهم إلى المجلس ، ولم يحسبوا له حساباً فى مناقشة الأمور ، إنما همهم كان منصباً على إرضاء الوزارة التى جاءت بهم إلى المجلس . فلم يذودوا عن مصالح الوطن فى أحلك الظروف ، وكان أول دليل على ذلك موقفهم من معاهدة ١٩٢٢ فقد كان عدد الموافقين ٣٧ نائباً من مجموع مائة نائب ، ولم توات الشجاعة بعضهم ليحضر إلى المجلس و يعارض ويرفض المعاهدة ، وليدخل فى نضال جديد ، ولو كان النواب مستندين على القوى الشعبية ما جبنوا وتولاهم الذعر ، فهم بين نارين ، نار الوزارة التى أدخلتهم البرلمان ، وهى تضمن لهم مصالحهم الخاصة ، ونار القوى الشعبية التى ثارت على المعاهدة ، فإذا وافقوا على المعاهدة فسوف يغضب الشعب ويلصق بهم تهمة الخيانة . ولو رفضت المعاهدة لتغير مجرى السياسة فى العراق وتغيرت أساليب حكم الشعب العراقى .

ومن الشعراء الذين أملوا الخير من النواب وتفاءلوا من وجود المجلس النيابى فاضل الصيدلى وحسين كمال الدين وعبد الرحمن البناء وقد كان تفاؤلهم ذلك بعيداً عن الواقع وممزوجاً بالشك فقد رسموا الطرق التى يجب أن تبذل فى سبيل الشعب فى دك صروح الجهل ، وإصلاح الأخلاق الفاسدة المتردية ، والأخذ بيد العامل والفلاح نحو الخير والصلاح ، فقد خاطب حسين كمال الدين النواب فى موشحة له :

أنوابنـــا هل لكم نهضـــة ؟ تقومون فيهـــا بإصلاحنـــا
فقـــد كاد يهلك عمـــالنا وأودى الطـــواء بفلاحنـــا
إذا مات فلاحنـــا جائعـــاً فلا فخـــر أن ننجـــو بأرواحنا[١٩]

ورحب فاضل الصيدلى بهم وهاجم سوء الظن الذى يحيق بهم لأنهم مقام الخائف الراجى ، والعائذ اللاجى ، والمستجير الناجى ، فقال :

---

(١٩) جريدة النهضة العراقية العدد ٢٧٢ السنة الثانية ١٩٢٨ ولاحظ قصيدة أخرى بتوقيع (شاعر نجفى) فى العدد ٢٦٦ من الجريدة نفسها ويبدو لى أنها للشاعر نفسه فهى من نفس الروى .

لاصَح سوء الظن فيكم أو وهى عزم ولا زلت بكم أقـــدام
أبـدوا سرائر عزمكم ورجـاؤنا أن تكذب الأضغـاث والأحلام(٢٠)

وقال عبد الرحمن البناء إن الشعب يفدى روحه من أجل النواب لأنهم مالكوا زمام الأمر فى العراق ، وسوف يتحدون فى سبيل مصالح الشعب ويقضون على أعداء الشعب فقال :

يا من ملكتم زمـام السيف والقلم رقـوا العراق بنشر العلم والعلم
ما اختاركم شعبـكم إلا لنصرته فأيـدوا رأيه حفظاً إلى الـذمم
كونوا يـداً فى مجال الذب واحدة تقضى على كل أفـاك ومنتقم
الشعب بالنفس فدّاكم وقدّمكم إلى العلا فاحذروا من زلة القدم (٢١)

ولما تجلى للعيان أعمال هؤلاء النواب خلال التجارب القاسية التى مر بها العراق ، ظهرت خيبة الرجاء وظهر كذب الظنون فإذا بالنواب قانعون بالراتب وبالمنصب دون العناية بمصلحة الشعب فقال خيرى الهنداوى :

أيـن العـدالة أيهـا النـواب كـذب الرجـاء وسدت الأبواب
قصدتكم الآمـال وهى ظـوامئ فإذا الذى قد غرهن سراب
كنا نظن بكم ننـال حقوقنـا فتقطعت فيكم بنـا الأسباب
أطاكم قبض الـرواتب يا تـرى أم أقنعتكم هـذه الألقـاب ؟ !(٢٢)

والواقع المرير أن جلّ النواب لم يكونوا راغبين فى معارضة الحكومة ، ولم تكن لهم الجرأة والشجاعة على الثورة على أى قانون تسنه ، إذ لم تكن هناك أحزاب قوية لها من المنعة ومن القوة ما تسند نوابها ، فقد مر العراق فى دور كانت فيه أحزاب ، ولكنها لم تتغلغل بين أفراد الشعب ولم تكتسب يوماً من الأيام شعبية . وقد كانت الانتخابات فى كثير من الأحيان تجرى بدون وجود أحزاب فى البلد وتدير دفة الانتخابات سلطات الحكومة التى منحت نفسها صلاحيات واسعة لحمايتها من الشعب فإذا وجدت حزباً بدأ يقوى سارعت إلى حله تخلصاً

---

(٢٠) جريدة العراق العدد ٢٤٧٣ السنة التاسعة ١٩٢٨ .

(٢١) جريدة الأخلاق العدد ٦٧ السنة الثانية ١٩٢٨ ولاحظ العدد ٧٩ السنة ١٩٢٨ قصيدة شاكر أسعد من الهويدر والعدد ٥٩ السنة الأولى ١٩٣٨ قصيدة بتوقيع ل . م . ج

(٢٢) مخطوطة ديوان الهنداوى فى مكتبتى .

من المشكلات التى قد تنجم منه ، حتى إن ياسين الهاشمى حل الحزب الذى كان يترأسه بعد أن أصبح رئيساً للوزارة . فكان الشعب بعيداً كل البعد عن الانتخابات ، فنما الشعور العام بأن المجالس أداة بيد الحكومة وأن النواب يعينون فيها(٢٣) ولم تكن هذه المجالس تملك السيطرة على الوزارة إذ لم يحدث فى تاريخ العراق أن استقالت وزارة لأن المجلس قد سحب منها الثقة(٢٤) .

ولم تكن عيون الشعراء بعيدة عن أحوال هؤلاء النواب ، لذلك انصب عليهم سيل من التهكم المرير ، كانصبابه على الوزراء ، فقد قال الجواهرى يلذعهم بقاسى الكلم عندما عقدت الجلسة النيابية لتأبين عبد المحسن السعدون :

ولقد أقـول لرافعين أصابعـاً ... ليست تحسّ كأنـما أحطاب
رهـن الإشارة تختفى أو تعتلى ... وينـال منهـا السلـ ، والإيجـاب
ماذا نويتم سادتى : هـل أنتم ... بعد الرئيس – كعهده – أخشاب
هل تنهضـون إذا استثيرت نخـوة ... أو تجمـدون كأنكم أنصـاب
هل أنتم – إن جـد أمـر ينبغـى ... توحيد شملكم به – أحـزاب(٢٥)

وقد سخر على الشرقى من المجلس ولم يـر فيـه سوى المظاهر الكاذبة وترك أمره للأيام فهى كفيلة بتقدير قيمته ، ولا أرى الأيام بحاجة إلى أن تجيب ،فقد وجدت البرلمان آلة دون شك بيد الحاكمين فقال :

صـوروا مجلساً بهيـاً أنيقـاً ... شيخه واقف ويلقى خطابـه
لو سألتم منـه سؤالا دقيقـاً ... سوف تعطيكم الليالى جـوابه

وكان محمد باقر الشبيبى واضحاً كل الوضوح بوصف مجلس النواب بآلة يراد بها إسباغ حق شرعى على القوانين والرغبات التى يريدها المستعمر ، فهو دريئة لأعمالهم ومجنّا

---

(٢٣) لما انتخب الرصافى نائباً جاءه أحد إخوانه ليقدم له التهانى فقال له : أهنئك بانتخابك نائباً فضحك الرصافى وقال تقصد بتعيينى نائباً .

(٢٤) تحدى أحد رؤساء الوزارات النواب قائلاً من أراد أن يبرهن على شعبيته فليستقل من المجلس وأنا أبرهن له بأنه لن يعود إلى المجلس . فسكت النواب .

(٢٥) جريدة العراق العدد ٢٩٢٧ السنة العاشرة ١٩٢٩ وذكرى السعدون ص ١٢٠ .

يصدون به أقوال الشعب ، والحق أنه طريق لاستعباد الأمة فقال فى الحفلة التى أقيمت على شرف مستر كراين :

فخـذوا من الحكم المشوه صـورة ومثالها هذا الزمـان الأسـود
وأقامها العهد (العتيد) حكومـة هى طبق ما اتفقـوا عليه ومهـدوا
وتستروا بالمجلسين فمجلس طوع البنـان ومجلس يتجلـد

ولم يرض عن الضيم والذل الذى يكتنف العراق ، وقال إن هذا سكوت الأبى الصابر المتفائل المستعد فقال :

أما العـراق فإن فى تاريخـه شرفاً يضىء كما يضىء الفـرقد
ليس السكوت من الخضوع وإنمـا هذا السكوت تجمـع وتحشد(٢٦)

البرلمان والمعاهدة :

تركت المعاهدة الأولى وما يتبعها من أحداث آثاراً سيئة فى نفوس أبناء الشعب فاضطرب العصر اضطراباً واضحاً وماج بين قوتين . قوة الشعب التى يساندها المثقفون والواعون ، وقوة الانتداب ومن سار فى ركابه من المنتفعين والانتهازيين . وقد كان الجميع يتوقون إلى استقرار الحال ، بعد أن طالت فترة الاضطراب ، فالإنكليز يريدون استقرار الأحوال لتمشية مصالحهم وتحسين سمعتهم بين العالم المتمدن . ويريد الوطنيون الاستقرار ليسيروا قدماً فى إصلاح البلاد إصلاحاً عاماً يمكنهم من مواصلة الكفاح مرة أخرى . . وبين هؤلاء كانت بعض القوى تؤيد الحكومة الوطنية ، التى تحرص على استبقاء ما سمته المعاهدة بالاستقلال ، كيلا تتحطم مساعيهم وأملا فى الحصول على أشياء جديدة من الإنكليز ، وقد فكر الإنكليز فى الخروج من هذا المأزق وتفتق ذهنهم على شىء جديد هو عقد معاهدة جديدة يجددون بموجبها علاقتهم بالعراق . . ولإدخاله إلى عصبة الأمم ، دولة مستقلة فى الظاهر ، محافظين على مصالحهم الخاصة وبذلك يوهمون الشعب بإنهاء الانتداب عن العراق وابتعاد الأثر الأجنبى فيـه . ولما نشرت مسودة المعاهدة فى الجرائد لم ير العراقيون فيها تغييراً كبيراً عن المعاهدة السابقة فقد قيدت سيادة البلاد وشنت ضدها معارضة قوية من الأحزاب . ومر العراق فى فترة حالكة وأحجم الساسة عن تشكيل وزارة توافق على بنود المعاهدة وتعطل تشكيل

(٢٦) جريدة النهضة العراقية العدد ٣٠٤ السنة الثانية ١٩٢٩ .

وزارة جديدة مدة ثلاثة أشهر ولم تجُد الدعاية التى شنها الموالون للاستعمار أو تؤثر مساعيهم شيئاً فقد أعلنت المعارضة برياسة ياسين الهاشمى أن المعاهدة قد أعلنت الاحتلال من جديد (٢٧) إذ نصت على إجراء مشاورة تامة وصريحة فى جميع شئون السياسة الخارجية مما له مساس بمصالح العراق وبريطانيا (٢٨) وأن يقدم العراق جميع ما فى وسعه من التسهيلات والمساعدات اللازمة من استخدام السكك والأنهر والموانئ والمطارات ووسائل المواصلات فى حالة الحرب أو خطر الحرب(٢٩) وضمنت بريطانيا لنفسها مكانين لإنشاء مطارين جويين داخل الحدود العراقية لتقيم فيهما القوات البريطانية (٣٠) وأوجبت تدريب الجيش العراق تحت الإشراف البريطانى وشراء أسلحته من بريطانيا إذا تيسرت هذه الأسلحة لديها (٣١) .

صودق على المعاهدة فى ١٦ ت ٢ فى جلسة واحدة بأغلبية ساحقة . . وبذلك أصبح العراق فى وضع جديد أهّله ليكون عضواً فى عصبة الأمم (٣٢) وبدخول العراق عصبة الأمم اعتبر دولة مستقلة ذات سيادة . إن الوضع الجديد الذى سيصله العراق سيجعله بصورة رسمية مستقلا ، واعترف به شكلياً بأنه دولة مستقلة ، غير أن هذا الحل لم يرض الذين لمسوا السيطرة البريطانية واضحة ، فى تسيير دفة أمور الحياة العامة للعراق . . ولم يخف عنهم ما فى بنود المعاهدة من قيود قيدت العراق . . فكان رد الفعل عميقاً فى النفوس ، وبدأ الوطنيون يهاجمون الحكومة التى غدت آلة طيعة بيد المستعمرين ، كما هاجموا المعاهدة وأظهروا ما حاق بالعراق من تأخر وانحطاط . لأن الإنكليز هم الذين يصرفون أموره حسبما تقتضيه مصالحهم .

وقد شاركت الصحافة العراقية فى إبراز عيوب المعاهدة الجديدة للشعب ، وأظهرت ما فيها من متناقضات غريبة فقد كتبت جريدة المستقبل فى افتتاحيتها (إن الاستقلال التام لا يجتمع والاحتلال فى صعيد واحد ، ونضرب مثلا بارزاً للعيان هو جثوم الطائرات

---

(٢٧) تحرر العراق من الانتداب ص ١٤ ونص المعاهدة فى البلاد ٢٠٨ / ١ / ٩٣٠ .

(٢٨) المادة الأولى من المعاهدة

(٢٩) المادة الرابعة من المعاهدة

(٣٠) المادة الخامسة من المعاهدة

(٣١) يلاحظ تعليق خدورى : تحرر العراق من الانتداب ص ٩ – ١٤ وتعليق الدكتور زكى صالح مقدمة من تاريخ العراق المعاصر ص ٨٧ و٨٨ وخطاب المعارضة الذى ألقاه ياسين الهاشمى . العراق فى دورى الاحتلال والانتداب ص ٢٢٠ و٢ وخطاب الحومة ص ٢١٣ .

(٣٢) راجع خدورى ص ١٥ – ٣٧ .

الإنكليزية على أرض العراق . .) ثم قالت (. . السماء والأرض والحوادث تشهد بأن إنكلترا مذ عقدت معاهدة ١٩١٥ مع شريف مكة (سجين قبرص) لم تفكر باستقلال البلاد العربية ، كما أنها لم يخطر لها أن تترك العراق حرًّا مستقلا . . ولكن دعاة السوء وسماسرة الأخاديع يزعمون أن الوزارة الحاضرة دخلت المفاوضات مع بريطانيا على أساس الاستقلال التام . . فما أوقح هذا الزعم وما أفضح الدعوة الضعيفة إليه . (٣٣)

إن الجهود التي بذلت للحيلولة دون المصادقة على المعاهدة ذهبت أدراج الرياح لأن الملك فيصل كان راضياً عن المعاهدة خلافاً لموقفه فى معاهدة ١٩٢٢، فقد أعلن بكل صراحة هذا الرأى وقال (إن العراق حر طليق لا سيد عليه غير إرادته . وحليفتنا بريطانيا ليس لها فى هذه البلاد سوى شيء واحد هو هذا الخط الجوى . .)

ولم يكتف فيصل بذلك إنما هاجم الذين وقفوا أمام المعاهدة وقال (. . وإن الذى يؤسف له ألا يكون من بين رجال الأمة من يدرك حقيقة ما بينته لكم ، ولا يجرؤ على مصارحتكم به ، مما اضطررت أن أصارحكم بذاتى . .) غير أن هذا الرأى لم يكن يتفق ورأى زعماء المعارضة لأنهم وجدوا المعاهدة جائرة وفاسدة وأنها قيدت استقلاله الموهوم وأرادوا أن تبدل هذه المعاهدة بمعاهدة أخرى تعطى البلاد استقلالا كاملا لا تشوبه شائبة ، وأن المجلس الذى عقد المعاهدة مجلس غير شرعى ولا يمثل البلاد(٣٤) وأن المعاهدة تتضمن الاحتلال الأبدى(٣٥) لأنها زادت من أغلال العراق وعزلته عن الأقطار العربية(٣٦) ووضعت العراق رسمياً تحت حماية بريطانيا سياسيًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا وقضت على الوحدة العربية وثبتت أقدام الصهيونية فى فلسطين الشهيدة(٣٧)

ولم يختلف رأى الشعراء عن رأى رجال المعارضة من القوى الوطنية فقد هاجموا المعاهدة والبرلمان الذى صادق عليها واعتبروها معاهدة باطلة لأن البرلمان الذى أقرها لا يمثل الأغلبية ،

---

(٣٣) تحرر العراق من الانتداب ص ١٤

(٣٤) لاحظ وثيقة التآخى بين حزبى الإخاء والحزب الوطنى فى جريدة الاستقلال العدد ١٧٠٣ السنة ١٣ سنة ١٩٣٣

(٣٥) جريدة الزمان الصادرة بدل البلاد ٢٨٤ فى ١٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٠ ولاحظ آراء حكمة سليمان ومحمد رضا الشبيبى وحمدى الباجهجى وباقر الشبيبى ومحمود رامز ، ضد المعاهدة كما دافع عنها نورى السعيد فى العدد نفسه والعدد ٢٨٥ .

(٣٦) الزمان العدد ٢٨٤ لاحظ رأى الكيلانى والهاشمى .

(٣٧) المصدر السابق لاحظ رأى مزاحم الباجهجى .

وبرلمان لا يمثل الشعب يجب ألا يقرّ معاهدة تقرر مصير البلاد ، ومستقبلها السياسى ، خاصة وأن الكثرة الكاثرة قد قاطعت هذه الانتخابات ، وصفحات الجرائد تطفح بأسماء الذين قاطعوها وأسماء المحتجين على طريقة الانتخابات وخاصة جرائد المعارضة . فقد قال صالح الجعفرى بعدم شرعية البرلمان لأن إنكلترا أشرفت على الانتخابات وسيرتها نحو الهدف الذى تريده وجاء أعضاؤه وفقاً لرغباتها ، وكيف يوثق بمجلس طوع إرادة الإنكليز . وقد جاء نوابه حسب رغباتهم خاصة ، وأن أغلبية الشعب لم تشترك فى هذه الانتخابات ، قال من قصيدة :

ما الانتخاب بمشروع إذا اتفقت ... كل البلاد على أن ليس تنتخب
أبرلمان وهذا الشعب قاطعه ... إلا القليل ، وقد حفت به الريب
ما مثل المجلس المعقود أمته ... وإنما عقدوه وفق ما رغبوا
خدعتم الشعب بالأشباح ماثلة ... جوفاء تسترها أثوابها القشب
كأن لندن مغناطيس مجلسنا ... فحيثما جذبته تلك ينجذب
منها القرار ومنا أن ننفذه ... والأمر منها ومنا الطوع والأدب[٣٨]

وقد نظم فى هذا المعنى جواد السودانى وأظهر غضب الشعب على الحاكمين ، وشرح طريقة تلقين هؤلاء للدفاع عن مصالح الدخيل فقال :

لم ننتخب نحن نوابا نواثبنا ... منهم ، إذا كانت الأعيان تعيينا
لا تعقدوا مجلساً ترضى مبادئه ... ألفاً ، وتغضب من شعبى ملايينا
رجاله تشبه الببغاء لو نطقت ... تلقن الأمر (منهم فيه) تلقينا[٣٩]

وقد طعن الشعراء بالانتخابات التى جرت فى ظروف شاذة من التهديد والإرهاب ، وبالنواب الذين رضوا أن يمثلوا البلاد فى مثل هذه الظروف لأنهم أصبحوا شوكة فى قلب الوطن ينغرون فى مصالحه وفى استقلاله وفى سمعته . . وجروه إلى الشقاء والفساد : ومثل هذا الرأى جماعة منهم محمود الملاح ، قال من قصيدة ألقاها فى الحزب الوطنى المعارض :

لا أمان فى مجلس قائم فو ... ق ضروب التهديد والإرهاب

(٣٨) جريدة صدى الاستقلال العدد ٢٩ السنة الأولى ١٩٣٠ .
(٣٩) المصدر السابق العدد ١٩ السنة الأولى ١٩٣٠ .

فيه تغتال للبلاد حياة ... وتساق البلاد نحو الخراب
أى فضل لفتية ما لهم من ... هدف غير خدمة الانتداب
ما شقاء البلاد إلا من الأذ ... ناب ، ويل لمعشر الأذناب !
ضربت فى البلاد أطناب ذل ... فغدوا كالأوتاد للإطناب(٤٠)

وقد بذل معروف الرصافى(٤١) جهداً كبيراً داخل المجلس ضد المعاهدة لأنه كان عضواً فيه ، وألقى خطاباً ندد فيه ببنودها قائلا (. . إن المعاهدة كمعاهدة الحمل مع الذئب وما أدرى أية قيمة لمعاهدة تقع بين الحمل والذئب . .) ثم بين الظروف التى حملت العراقيين على عدم الرغبة فى المعاهدة بقوله (. . نحن فى عقد هذه المعاهدات لسنا على اختيار بل على اضطرار . كلنا يعلم أن العراق فى قبضة بريطانيا الحديدية أو النارية وأن الإنكليز لهم سلطة نافذة قهارة جبارة غدارة ، فى هذا الوضع تعقد معاهدة مع الإنكليز ، معاهدة بمعنى أنهم يملون ونحن نكتب . .)(٤٢) ويتجلى ألم الرصافى الواضح فى تتابع الصفات التى أسبغها على سلطة الإنكليز وقد كان الرصافى ضد كل معاهدة عقدت مع العراق فقد قال عن معاهدة ١٩٢٢ :

والعهد بين الإنكليز وبيننا ... كالعهد بين الشاة والرئبال
من ذا رأى ذئب الذئاب معاهداً ... بصداقة حملا من الأحمال(٤٣)

وقد طفحت جرائد هذه الفترة بسيل من أسماء الشعراء الذين نقموا على تصديق المعاهدة وأخذوا يهاجمونها وينتقدون سياسة الحكم القائم آنذاك ، فمنهم إبراهيم أدهم الزهاوى (٤٤)

---

(٤٠) جريدة الجهاد العدد ٢٤٠ الصادر فى ٢٥ آب (أغسطس) سنة ١٩٣٠ .

(٤١) بقى الرصافى يندد بالمعاهدة طوال حياته مطالباً باستقلال العراق . لاحظ – آراء الرصافى – جمع سعيد البدرى بغداد ١٩٥١ ص ٢٠ و٢٥ وما بعدها وعندى قصيدة لمحمد صالح بحر العلوم ضمن مخطوطة شعره يقول فيها :

عهد حزيران وكم ثائر ... حولى على عهد حزيران
فحمله بالبغى من لندن ... ووضعه عندى ببغدان
نوائب الأمة فى جانب ... وأمها فى الجانب الثانى
وحكم من تزنى – وإن لم تكن ... محصنة – عطف على الزانى

(٤٢) جريدة نداء الشعب العدد ٣١٠ صدر فى ٢١ تشرين الثانى ١٩٣٠

(٤٣) آراء الرصافى للبدرى ص ٣١ وأدب الرصافى لمصطفى على ص ١٠٥ وديوان الرصافى ٥٠٢ .

(٤٤) جريدة بغداد العدد ٢ السنة الأولى سنة ١٩٣١ .

وجواد السودانى (٤٥) ومحمد حبيب العبيدى (٤٦) وعبد الحسين الملا (٤٧) وباقر الشبيبى (٤٨) والصافى (٤٩) وشفيق العانى (٥٠) . وغيرهم كثيرون ممن نشروا فى جرائد ومجلات أخرى . وقد اتفقوا جميعاً على أمر واحد هو التنديد بالمعاهدة الجائرة وآلمهم أن تكون بلادهم لعبة تستغلها قوات الأجنبى لصالحها ، تهدر مصلحة الشعب الذى ذهب ضحية الوعود الكاذبة ، وضحية الانتهازيين من أبنائه والمنتفعين من وجود المستعمرين فى بلادهم الذين أسلموا الوطن دون أن يردعهم ضمير أو يؤنبهم على الخيانة وازع ، فعاثوا فى مقدراته دون حسيب أو رقيب (٥١) . وكان من أبناء هذا الوطن الوزراء الذين حصلوا على امتيازاتهم وألقابهم ورواتبهم من كد الشعب وعرقه ودموعه ودمه ، ولكنهم لم يرعوا حقوقه وإنما فضلوا مصالح الأجنبى الغشوم على مصالحه وعاشوا فى العراق ولكنهم يستمدون تعاليمهم من خارج العراق ، فأثقلوا كاهل الشعب وأرهقوه ، ونصبوا من أنفسهم قادة للشعب ، وحجبوا الوطنية عن غيرهم واحتكروها لأنفسهم دون حياء أو خجل ، فانساق بعض السذج معهم وظنوا أن قولهم الصدق وخالوا ما يدعون هو الصواب ، فلما تكشفت نياتهم وظهر للعيان ما بيتوا لهم من أغلال وقيود باسم التحالف وباسم المعاهدة تنبه الشعب واتجه نحو الصواب ، وتركهم وحدهم مع أسيادهم ، وقد رأى بعض الشعراء أن خير حل للقضاء على هؤلاء هو ثورة تطيح بهم وبأسيادهم وتعيد للشعب حقوقه المهضومة (٥٢) ، والشعر العراقى فى هذه الفترة كثير ولنأخذ مثلا واحداً من شعر أحمد الصافى النجفى وفيه يتجلى مقدار الخسارة الفادحة التى حلت بالعراق من جراء المعاهدة التى عقدها الوزراء من أبناء الشعب الذين حصلوا على كل ما حصلوا من ثروة باسم هذا الشعب فقال :

سرق الطامع أبهى مجـــــدنا ومضى يعـــــدو فأيـــن الحرس

---

(٤٥) جريدة صدى الاستقلال العدد ١٩ السنة الأولى ١٩٣٠ .

(٤٦) جريدة البلاد العدد الصادر فى ٣ كانون الثانى (يناير) ١٩٣٠ .

(٤٧) جريدة صدى الاستقلال العدد ٢١ السنة الأولى ١٩٣٠ .

(٤٨) جريدة الجهاد العدد ٢٣٩ الصادر فى ٢٤ من آب (أغسطس) ١٩٣٠ .

(٤٩) جريدة الجهاد العدد ٢٣٧ الصادر فى ٢٢ من آب (أغسطس) ١٩٣٠ وجريدة الاستقلال العدد ١٥٦ الصادر فى ١٦ آذار (مارس) سنة ١٩٣١ وجريدة صدى الوطن العدد ٣ السنة الأولى ١٩٣٠ .

(٥٠) جريدة الاستقلال العدد ١٥٨٩ السنة ١١ ، سنة ١٩٣١

(٥١) جريدة صدى الاستقلال العدد ١٩ السنة الأولى ١٩٣٠ قصيدة جواد السودانى .

(٥٢) جريدة بغداد العدد ٢ السنة الأولى ١٩٣١ قصيدة إبراهيم أدهم الزهاوى .

قد رقـــدنا أملا فى حرس ولقـــد نمنـا ونام الحـــرس
سهـروا فى أول الليـــل ولـا نهض السارق يسعى نعســوا
قد حصدنـــا الشوك ممـــا زرعـــوا وجنينـــا المـــر مما غرسوا

ويصور بسخرية لاذعة أولئك الذين ثاروا باسم الشعب وقادوه ، ثم تركوه لما حصلوا على ما يريدون من مناصب وثروات ، لأنهم يعتمدون على الأجنبى فى جميع آرائهم ، فليس لهم من رأى إنما هم آلات تنفذ رأى الأجنبى فقال :

باسم هذا الشعب نالـــوا ثـــروة ثم باعـــوا الشعب لما أفلسوا
كرماء لم يـــردوا طامعـــاً وأجـــابوا كل من يلتمس

وسخر من المجلس الذى يردد الآراء المستوردة بقوله :

أخـــذوا رأى شياطين لهـــم همسوا فى أذنهم ما همسوا
ما أرى المجلس إلا حاكيـــاً صوتـــه – عن مجلس – منعكس
ضم آلات بسلك وصـــــلت فإذا حـــرك يومـــاً تنبس
إن دعاهـــا لدفـــاع شعبها رجفت ثم اعتراها الخـــرس (٥٣)

لم تتحمل الحكومة معارضة الصحف الشديدة ، والوقوف أمام الانتخابات وعدم تصديق المعاهدة ، وأفزعها النقد الشديد الموجه ضدها لأن المعارضة كانت تستند على الجانب الواضح الصائب ، جانب الشعب والأكثرية المؤيدة له . وقد كان مؤيدو الحكومة أقلية ولكنهم أرادوا أن يحكموا البلد بالإرهاب وبالقوة وبالسيطرة فقد حاولت الحكومة أن تكمم الأفواه وإسكات كل معارض لسياستها فعطلت جريدة (الرافدين) و (الاستقلال) وأنذرت جريدة (المستقبل) ونفت (فهمى المدرس) و (رافائيل بطى) إلى أربيل(٥٤) ، فثارت ضجة فى البلاد تطالب الحكومة بالحرية الفكرية وإفساح المجال للكتاب للتعبير عن أفكارهم لخدمة هذا الوطن واحتجت جريدة المستقبل التى قالت (. . ما بال هذه الحكومات القائمة فى ظل الوضع الشاذ تضطهد الحرية فى بلاد الرافدين وتلاحق الوطنيين بشتى الوسائل وأنواع

---

(٥٣) جريدة الجهاد العدد ٢٣٧ الصادر فى ٢٢ أغسطس ١٩٣٠ ونشرت فى الأمواج ص ٥٤ وله فى الأمواج قصائد فى الصفحات ٥٠ و٥٢ و٥٣.

(٥٤) جريدة بغداد العدد ٢٦ السنة الأولى ١٩٣٢ وقد أصبح المعتمد العام لحزب الإخاء الوطنى ياسين الهاشمى ، أما التهمة التى وجهت للكاتبين فهى (المس بالذات الملكية وقلب نظام الحكم) راجع حاشية مقالات فهمى المدرس ص ١٢٣.

القسوة ؟ ماذا يبرر لتلكم الحكومات ولهذه الحكومة الحاضرة ملاحقتها لحرية الرأى وحرية النشر)[٥٥]

وسخر صالح الجعفرى من هذه التصرفات فقال :

أراهم قيـــــدوا الـــــرأى فلمْ سمـــوه لى حـــرا
وما فائـــدة الـــــرأى إذا لم أبـــــده جهـــرا
هل المـــرء سوى أن يـــــر تأى النفـــع أو الضرا [٥٦]

يمتاز العرب بحب الحرية الفكرية ، حرية الكلام والتعبير لأن حرية التعبير عن الرأى عزيزة فى نفوس الأحرار ، وقد أكد الإسلام على هذه الحرية فى أحاديث الرسول وفى سير الخلفاء ، لذلك كان كبت الحريات الفكرية يبوء بالفشل دائماً ونجد المطالبة بالحرية فى كثير من دواوين الشعراء ، فى ديوان الرصافى عدة قصائد [٥٧] ولعل أشهرها تلك التى نظمها سنة ١٩٢٢ م والتى أخذ هذا العصر يرددها [٥٨] ورددها العراق فى كل دور من أدوار كبت الحريات والتى غدت أغرودة بفم العراقيين ومضرب الأمثال دائماً :

يا قـــوم لا تتكلمـــوا إن الـــكلام محـــــرم
نامـــوا ولا تستيقظـــوا مـــا فـــاز إلا النـــوم
وتأخـــروا عن كل مـــا يقضى بـــأن تتقدمـــوا
ودعـــوا التفهـــم جانبـــاً فالخـــير ألا تفهمـــوا [٥٩]

ولم تتطرق إلى تأييد الحكومة التى عقدت المعاهدة غير قصائد محدودة [٦٠] فكانت جريدة العراق تعوض عن ذلك بمقالاتها فتهاجم المعارضة وتنشر بعض الرسائل المفتوحة أو البرقيات مثل (أخاديعهم لا تنطلى على الشعب) أو (ما هذه المهازل) وتحمل تواقيع متنوعة مثل (فريق من الشبيبة المعتقدة بتلاعبهم) أو (فريق من شبيبة الحلة) [٦١] وتسلقهم

---

(٥٥) جريدة المستقبل العدد الثامن السنة الأولى ١٩٣٠ .
(٥٦) جريدة النجف العدد ٧٥ السنة الثانية ١٩٢٧ .
(٥٧) ديوان الرصافى ص ٥٠ .
(٥٨) أدب الرصافى ص ٧٧ .
(٥٩) ديوان الرصافى ص ٤٤١ .
(٦٠) مثل عبد الرحمن البناء وعبد المجيد الملا والجواهرى .
(٦١) جريدة العراق الأعداد ٣٣٣١ و٣٣٣٢ و٣٣٣٣ السنة الحادية عشرة ١٩٣١ .

بافتتاحيات عنيفة مثل (يفترون) و (هل تستمر المعارضة فى طغيانها الأثيم) وإذا اعتقلت الحكومة المعارضين تقول (الحكومة تقضى على الدسائس والمكائد) و (ماذا يريد المفتونون) و (يغالطون ويموهون) (٦٢) ، وكانت جرائد المعارضة ترد عليهم وتنشر أخبار الاجتماعات ونشر الخطب وتعنون مقالاتها بعناوين مثل (الخرس لهذه الأفواه) و (يكيدون للشعب) (٦٣) كما كانت تنشر أخبار الإضرابات التى يقوم بها الشعب وتعلق عليها فترد عليها العراق (٦٤) ومن المقالات التى نشرتها ، مقالة تهاجم فيها المعارضة وتتهمها بأنها تعارض للحصول على كراسى الحكم وقالت (إن مناحة المعارضين يوم الجمعة الماضى لم تختلف بشىء عن مناحاتهم المعروفة فقد بكوا كثيراً على القضية المضاعة ، والوطن المحروب ، والحرية المضطهدة ، والصحافة المصفدة ، والآمال الفاشلة ، وحاولوا استبكاء الجمهور على غير جدوى ، وكانوا فى الحقيقة ينوحون على كراسى لصقت أعينهم بقوائمها وعلى مناصب ضخمة ، ومراتب جزيلة) (٦٥) ، وعندما ينشر الجواهرى قصيدة يؤيد بها المعارضة تثور الجريدة عليه وتعجب كيف ينظم قصيدة فى تأييد المعارضة وهو الذى أيد الحكومة بالأمس وضحى فى سبيلها بوظيفة يتهافت عليها المعارضون ، ثم تنشر له قصيدة هاجم فيها المعارضة وأيد فيها الحكومة من قبل قال فيها ساخراً منهم :

فقد علم الأقـــوام أن ليس عنـــدكم سوى خطف كرسى ومنضـــدة قصد
وهيبات هيبات الكراسى ولمسهـا فمن دونهـا سد ومن دونكم سد(٦٦)

---

(٦٢) جريدة العراق ٣٣٧٣ و ٣٣٧٥ و ٣٣٧٦ / ١١ / ١٩٣١

(٦٣) الإخاء الوطنى أعداد السنة الأولى وغيرها من جرائد المعارضة الصادرة ١٩٣٠ و ١٩٣١ كالاستقلال ، والثبات والأخبار ، والبلاد .

(٦٤) دراسة هذه الفترة تستحق عناية من أحد الباحثين لوجود أشياء طريفة وجديدة .

(٦٥) جريدة العراق ٣٤٧٧ / ١٢ / ١٩٣١ المقال الافتتاحى .

(٦٦) جريدة العراق العدد ٣٤٨٧ / ٢ / ١٩٣١ولاحظجريدة الزمان العدد ٢ / ١ / ١٩٢٧ ويلاحظ جريدة الإخاء الوطنى العدد ٢٤ / ١ / ١٩٣١ وجريدة العراق ٣٤١٩ / ١٢ / ١٩٣١ .

٤

عبد المحسن السعدون

لاحظنا الصدام العنيف الذى حدث بين القوى الوطنية والقوى الأجنبية . فلم يكن العراق هادئاً مستقرًا وكان الرأى العام مضطرباً ينذر بالعاصفة ، فقد كانت البلبلة متفشية بين الصفوف والحياة الحزبية مضطربة متفككة . وكان العراق يريد أن يأخذ لنفسه ما استطاع من الحقوق وبريطانيا تحاول جاهدة استبقاء سيطرتها بطرق شتى ، وفى مثل هذا الجو المتوتر الثائر القلق طلب إلى عبد المحسن أن يؤلف الوزارة لعقد المعاهدة ، فاشترط أن يحصل على وعد صريح بإلغاء المعاهدة والاتفاقيات السابقة وأن يدخل العراق عصبة الأمم بدون قيد أو شرط، وأن تكون المعاهدة الجديدة على أساس الاستقلال التام . وكانت بريطانيا تبحث عن مخرج تخلص به من التوتر السياسى ، فأظهرت استعدادها لقبول شروط السعدون ، فألفها معتقداً بأن بريطانيا سوف تحقق للعراقيين أمانيهم ، حتى قال فى حفلة إجراء مراسيم تشكيل الوزارة « لقد أمعنت أنا وزملائى النظر ملياً فى جواب الحكومة البريطانية هذا فاقتنعنا بأنه محقق لشطر كبير من رغائب الأمة العراقية التى لا ترضى عن الاستقلال التام بديلاً » (١) . واعتقد أنه سوف يقدم لبلاده ما يريده لها من الاستقلال التام والكرامة . ويبدو أن رجال السياسة قد أدخلوا فى روعه أنه المنقذ الوحيد للعراق من البلبلة والتوتر السياسى ، وكأنى بالسعدون قد وعد بتحقيق هذه الأمانى لأمته ، وإذا فشل فسوف يؤازره الشعب ويأخذ استقلاله بالقوة وبالتضحية والفداء . ولعل مظاهر الحماس التى رآها على الشعب أججت فى قلبه هذه الرغبة تسنده الوعود التى بذلت له بصورة سرية (٢)

---

(١) ذكرى السعدون – تأليف على الشرق – بغداد ١٩٢٩ ص ٥٦ . لاحظ خطاب السعدون جميعه . وقد أكد هذا المعنى فى الخطاب الذى ألقاه فى حزب التقدم وكرر الفقرة نفسها . ذكرى السعدون ص ٦١ وفى الكتاب ترجمة وافية لحياة السعدون .

(٢) قال على الشرق (لكن المقامات العالية حركت نخوته واخلاصه ، واستنبضت عرقه الكريم ، وناشدته بالعروبة والوفاء لها) ص ٥٥ .

فاندفع وصرح بوجوب أخذ الاستقلال بالقوة . ولولا رغبته وما جال وراء الستار لما اندفع هذا الاندفاع حتى ظن أن الاستقلال أصبح ملك يمينه ، ولكنه اصطدم على صخرة رغبات بريطانيا . وصعب على المرء أن يرى أحلامه العراض تتحطم ، ويهوى ما بناه بيده فتنتابه المذلة والألم . وقد حدث ذلك للسعدون ، فلم يقدر على إقناع رجال السياسة البريطانيين الذين تقلبوا فى السياسة وعاشوا فيها ، وعرفوا خباياها ، ولم يقف الشعب العراقى وراءه ثائراً مقاتلا (٣) ، لأن هناك قوى أخرى غير الشعب تقف ضده ، هناك أذناب المستعمر الذين يملأون بلاده ، وهناك الملك الذى لا يريد أن يفرط بالعرش ، وهناك عقبات أخرى فى الشعب العراقى لم يقدرها السعدون حق قدرها وكانت خيبة الأمل مريرة فى نفس السعدون (٤) تجلت فى الوصية التى تركها عندما انتحر قال فيها :

« إنى سئمت هذه الحياة التى لم أجد فيها لذة وذوقاً وشرفاً . الأمة تنتظر الخدمة والإنكليز لا يوافقون ، ليس لى ظهير . العراقيون طلاب الاستقلال ضعفاء عاجزون وبعيدون عن الاستقلال(٥) فنجد السعدون واضحاً كل الوضوح من أنه ورط فى تأليف الوزارة وترك وحده فى المعركة ، ولم يوفق بين رغبات الشعب العراقى الضعيف العاجز . . البعيد عن الاستقلال والحرية وبين رغبات الإنكليز الذين لا يوافقون على منح الاستقلال .

أعد السعدون كل شىء وفكر فى كل الاحتمالات ففض المجلس النيابى وجاء بنواب أكثريتهم معه فاستند على قوتهم وصفق له حتى المعارضون عندما عاهد الله والوطن على الجهاد والتضحية ، وقد اعتمد الملك عليه للخروج من المأزق بل أثار نخوته ليدير دفة البلاد ، وقد كان السر كلبرت كلايتون المندوب السامى يؤيد المطالب العراقية ، وقد رأى السعدون فى جواب بريطانيا تحقيقاً لشطر من رغائب الأمة العراقية وقال : « إن الاستقلال أصبح وشيكاً وإن المعاهدة تنتهى مع الاتفاقيات برمتها وستعقد معاهدة جديدة أساسها الاستقلال التام (٦) » لكنه باء بالفشل ولم يحصل على شىء . وقد كان السعدون

(٣) سأله الريحانى عن مدى استجابة أعضاء حزب التقدم لآرائه السياسية فقال : « الاعتقاد رصين والأمل وطيد بأن الحزب يكوى بحرارة الإخلاص الذى أحمله ، وغالباً أجد روحى تتوزع عليه ويندفع بقوة الحق إلى مشاركتى . »

(٤) قال السعدون فى معرض حديثه مع زميل له « أنا مثلى معكم مثل موسى مع أصحابه إذ قالوا له اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ماذا أكون . ، وحدى وأنكم ما فيكم الباسل . . . »

(٥) جريدة العراق الأعداد ٢٩٢١ ، ٢٩٢٢ ، ٢٩٢٣ ، من السنة العاشرة ١٩٢٩ كتب السعدون وصيته باللغة التركية وترجمت بعد ذلك .

(٦) لاحظ خطاب السعدون فى جلسة حزب التقدم الأولى فى اليوم الأول من شهر تشرين الثانى (نوفمبر سنة ١٩٢٩ ذكرى السعدون ص ٥٨ وما بعدها .

أبيًّا كريم النفس فاسودت الحياة بعينيه وسئمها بعد أن ضاع منه ما يريد أن يحققه لشعبه واتهم بالخيانة وبأنه خادم الإنكليز وعبدهم(٧) مع أن الرجل تحمل ما لا يطاق وزج بنفسه فى مأزق أراد به خدمة الأمة .

لم يمت السعدون دون أن يترك أثراً عميقاً وراءه هو وصيته التى هزت الشعب العراقى لأنها أطلعته على ضعف الشعب وتخاذله وقت الشدائد وحقيقة الصراع الذى كان ناشباً بين السعدون وبين الإنكليز .

والشعب العراقى شعب مستعجل لا ينظر إلى الماضى ولا يتعظ . . ينسى بسرعة فهو يلقى كلمات الحمد والثناء على من تملق عواطفه وينسى إساءته سريعاً ، وهو يغضب سريعًا وينسى جميع ما يقدم له ويتمسك بآخر غلطة للإنسان ويريد أن يتدخل فى كل الأمور صغيرها وكبيرها ؛ وقد كان السعدون كتوماً لأسراره فاتهم بالخيانة ، وكان رزيناً فباعد بينه وبين أبناء الشعب ، فاستيقظ الشعب على صوت انتحاره وهاجت عواطفه الطيبة فى ضميره ، وخاصة سبب الانتحار كان عدم موافقة الإنكليز على إعطاء العراق استقلاله التام . وقد نسى الشعراء جميع حياة السعدون واتخذوا الفرصة نبراساً يهتدون بهديه فى شعرهم وأصبح السعدون رمزاً قوميًّا كريماً ونموذجاً صادقاً فى الوطنية والتضحية ، فانتشرت صوره فى كل مكان ورسمت على علب السيكاير وورق لف السيكاير والأوانى الفخارية وعلى كثير مما يستعمله الشعب وعلقت على بضائع التجار لترويج . وقد أقيم له تمثال فى خير بقاع بغداد وأضخم مكان(٨) وسمى باسمه شارع كبير وحديقة . وأول الشعراء الذين أصابتهم الحسرة وأمضتهم اللوعة كان معروف الرصافى . فقد كان عبد المحسن صديقاً له يواليه بعطفه ورعايته وجاهه وماله(٩) وكان الرصافى يمقت الإنكليز الذين استعمروا بلاده فاستحال هذا المقت إلى كراهية عميقة ، فقد أجهزوا على صديق عزيز عليه وسند قوى يركن إليه فأهاجت ميتة السعدون كوامن الألم فى الرصافى فصبها سيلا من الحمم والقذائف على الإنكليز(١٠) فوصف عظم التضحية التى قام بها السعدون ومقدار خسارة الوطن

---

(٧) جريدة العراق ، لاحظ الأعداد التى ذكرت الوصية .

(٨) غير محله وحرك قليلاً حيث وضع فى مكانه الحالى بمدخل الشارع المسمى باسمه عندما أفتتح الجسر الجديد فى الباب الشرقى .

(٩) بشأن صداقة الرصافى والسعدون لاحظ (الرصافى) تأليف مصطفى على مصر١٩٤٨ ص ١٩٤

(١٠) ديوان الرصافى ص ٣١٠ و٣١٢ و٣١٦ ولاحظ ذكرى السعدون ص ١٢٧

بهذه التضحية ، ثم هجا الإنكليز الذين سببوا هذه الكارثة . وأشهر قصائده وأطولها الرائية ، وقد بوّبها الشاعر أبواباً ، ووضع لها العناوين المتنوعة فوصف أولا منظر الرافدين يوم وفاة السعدون وهما يجريان دماً بعد أن أمضهما الحزن واللوعة ووصف الحزن الذى انتاب الشعر بهذه الكارثة وذكر الميزات التى امتاز بها السعدون والسجايا الكريمة والمزايا العالية التى فضلته على سواه ، وخير هذه المزايا وأسماها التضحية الكبرى بنفسه فى سبيل الوطن ، ثم خاطب أهل لندن ما جرته سياستهم من آلام وأحزان على العراق ، وفى القسم الأخير قارن بين سعد زغلول وعبد المحسن السعدون وما قدم كل زعيم لبلاده من تضحيات وخدمات وفضل السعدون على سعد زغلول لأنه كان أكثر تضحية ، إذ فدى الشعب العراق بنفسه والجود بالنفس الأخير أقصى غاية الجود ، ويدخل ضمن موضوعنا القسم السياسى الرابع الذى خاطب فيه الإنكليز بقوله :

يا أهل لنـــدن ما أرضت سياستكم ... أهل العراقين لابدواً ولا حضرا
إن انتـــدابكم فى قلب موطننـا ... جرح نداويه لكن لم يـــزل غبرا(١١)

ويشرح أعمالهم التى ارتكبوها فى العراق من تقييد لحرية الرأى ، ووقوف فى طريق تقدم العراق ، ورقيه ، وتفريق لصفوفه ، ليسنى لهم الحكم ثم بثهم الكراهية والبغضاء بين أبنائه بدل الحب والوئام والعطف لأن الاستعمار لا يقدر أن يعيش إلا فى الفوضى والاضطراب والبلبلة النفسية والرعب والفزع ، ثم يذكرهم بمعاهدتهم مع العراق فيقول :

فى كل يـــوم لنـــا معكم معاهـــدة ... نزداد منهـــا على أوطاننـــا خطـــرا
جفت بها سرحة استقلالنـــــا عطشاً ... حتى إذا ما مسسنا عودهـــــا انكسرا

ويصف قسوة قلوب الإنكليز فى سبيل مصالحهم وبذلهم الوعود السخية دون أن يفوا بها فيقول :

تقسوا قلوبكم لما نفاوضـــــكم ... كأننا نحـــن منكم ننقـــر الحجـــرا
أما مواعيدكم فهى التى انكشفت ... عن مين من مان أو عن غدر من غدرا

ويقارن بين وطنه الضعيف الواهى القوى وبين قوة الإنكليز الجبارة التى تسيطر على العراق ، ثم يتهددهم تهديد الضعيف الوهن ، فيصف الشعب بالذبابة التى تزعج الأسد

(١١) الجرح الذى اندمل على فساد ثم انفجر .

وكان الأجدر بالرصافى أن يتهدد الإنكليز بأن المستقبل للشعب الذى سوف يقوى ويشتد ساعده ويقضى على قوة الإنكليز ، ولا شك بأن الرصافى كان قريباً جداً من الواقع بعد عنا اليوم حينما قال :

لا تفخروا إن كسرتم غرب شوكتنا ... لا فخر للصقر فى أن يقتل النغرا [١٢]
لا تستهينوا بنا من ضعف قوتنا ... فكم ذبابة غابٍ أزعجت نمرا

وقد أبدى الرصافى تسامحاً وتساهلاً عندما عرض على الإنكليز صداقة الشعب بعد أن يئس من قوة الشعب وعدم قدرته على مقارعة قوة الخصم الجبارة والكفاح فى سبيل الأهداف السامية ، ولعله كان يأمل أن يحصل باللين وبالتساهل مالم يحصل عليه بالكفاح والقتال فقال :

هذى البلاد اغرسوا فيها مودتكم ... ثم اقطفوا من جناها ودنا ثمرا
نكن لكم حلف صدق فى سياستكم ... نمشى إلى الموت من جرائها زمرا
لسنا بقوم إذا ما عاهدوا نكثوا ... ولو جرى الدم حتى أشبه النهرا [١٣]

وقد رثاه كثير من شعراء هذه الفترة مثل محمد هادى الدفتر[١٤] وأكرم أحمد[١٥] وعبد الرحمن البناء[١٦] ومحمد بهجة الأثرى[١٧] ومحمد حبيب العبيدى[١٨] وكمال نصرة[١٩] وعبد الكريم العلاف[٢٠] وناجى القشطينى[٢١] وخضر القزوينى[٢٢] ومحمود الملاح[٢٣]

---

(١٢) النغر : بضم النون وتشديده الفرخ الصغير أو البلبل .
(١٣) ديوان الرصافى ص ٣١٤ وقد نشرت القصيدة فى جريدة البلاد فى العدد الصادر فى ٢٧ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٢٩ .
(١٤) جريدة العراق العدد ٢٩٦٩ السنة العاشرة ١٩٣٠ .
(١٥) جريدة العراق العدد ٢٩٢٥ صدر فى ٣٠ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٢٩ .
(١٦) جريدة النور العدد ١٣٩ صدر فى ١٧ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٢٩ .
(١٧) جريدة البلاد العدد ٣٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٩ .
(١٨) جريدة البلاد العدد ١٥ كانون الأول ١٩٢٩ .
(١٩) جريدة البلاد العدد الصادر فى ٢٩ تشرين الأول (نوفمبر) ١٩٢٩ .
(٢٠) جريدة العراق العدد ٢٩٥٧ الصادر فى ٢٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٩ .
(٢١) مخطوطة شعره فى مكتبتى الخاصة .
(٢٢) شعراء الغرى جـ٢ ص ٣٧٢ .
(٢٣) ذكرى السعدون ص ١٢٢ .

ومحمد مهدى الجواهرى[٢٤] ومحمد على اليعقوبى[٢٥] وأحمد حقى الحلى[٢٦] وغيرهم .

وقد بدا موقف الزهاوى قلقاً حائراً فقد ساهم الشعراء فى تأبين السعدون . أبقى دون أن ينظم شيئاً ، وأشد ما يخشاه أن يطعن فى ولائه للوطن ولا يريد أن يعيد ما قيل عنه وما يقال ، أم ينظم ويطعن الإنكليز ولا تزال القوى بيدهم والحول ملك يمينهم ، أراد أن يشارك الشعراء كيلا يقال نضبت قريحة الزهاوى وهو الذى يجب أن يذكر اسمه ويمجد ويقرضه النقاد[٢٧]. نظم قصيدة واستبعد مهاجمة الإنكليز ، وكان حذراً فآثر أن يسلك أسلم طريق فنظم الوصية وحاول أن يرسم صورة صادقة مكبرة لها وبذلك يتخلص من مهاجمة الإنكليز صراحة ويرضى الوطنيين ، قال :

ماذا تفيد سلامتى من شرهـــا ... إذ كان منه موطنى لا يسلم
الشعب ذو حرص على استقلالـه ... لا يرتضى أحـداً سواه يحكم
الشعب يطلب أن أقـوم بحقـه ... والإنكليز على التغاضى يرغـم
للشعب أبـرم ما أراه صالحـاً ... والإنكليز يحل ما أنـا أبـرم
للإنكليـز فى الانتـداب سياسة ... أما السياسة فهى ليست ترحم [٢٨]

وكان على الشرق من أقرب الناس إليه وأشدهم حسرة على موته حتى ألف كتاباً عنه وعن آل سعدون ، فإنه لم يتهم الإنكليز فى قتله مع أن السعدون قال صراحة فى وصيته إنهم السبب فى انتحاره بل لم أجد له قصيدة فى تأبين السعدون اللهم إلا قصيدة واحدة نظمها بمناسبة نصب تمثاله[٢٩] كانت موحدة الموضوع لم تخرج عن السعدون نفسه وإن حمدنا له هذه الوحدة فى المعنى نراه لم يستغل الفرصة ليؤلب الشعب على المستعمر الجاثم على صدر العراق .

---

(٢٤) ذكرى السعدون ص ١١٥ ، ١١٩ .

(٢٥) ذكرى السعدون ص ١٢٩ .

(٢٦) ذكرى السعدون ص ١٣٥ وأخبرنى الشاعر بأنه نظم قصيدة أخرى .

(٢٧) حدثنى أحد معاصرى الزهاوى ومن المتصلين فى جريدة العراق وأظنه الأستاذ رفائيل بطى أن الزهاوى كان يأتى إلى الجريدة ويكتب أمام اسمه الأستاذ الكبير الفيلسوف إلى غير ذلك من الألقاب والنعوت .

(٢٨) البلاد العدد الصادر فى ٢٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٩ وقد نشر فى ديوانه (الأوشال) المطبوع فى بغداد ١٩٣٤ ص ٤٤ وله قصيدة أخرى فى ص ٤٥ .

(٢٩) ديوان على الشرق ص ٢٠٧ .

أما الجواهرى فقد نظم قصيدتين لام فيهما الشعب وقرعه، كما لام الساسة فى الأولى وفى القصيدة الثانية صب جام سخطه على النواب الذين كانوا خشباً مسندة ، وكان رثاء عبد المحسن رثاء عامًّا لم يأت بجديد فيه ، ووصف وجوم الشعب حول قبره وسماه (ضريح أمة يعرب) الذى سيركع عليه التاريخ والجيل (والنخوة والعروبة والشهامة والصراحة) وإن (ثكله ثكل العروبة) وخص الملك فيصل وتوجعه بأبيات ومن ثم توجه إلى المعارضين بقوله :

يتساءلون بأى عـــذر تختفى ؟ من شعبنا وبأى وجـه نطلـع
واسترجعـوا أحكامهم مرفوضـة ناس بحكمهم عليك تسرعـوا

ثم طالبهم بالانتحار إن كانوا مخلصين لبلادهم ليطمئن الشعب إليهم :

قولـوا لأشباه الـرجال تصنعاً ألا تكونوا مثلـه فتقنعـوا
لا تبرمونـا بالتشدق ، شعبكم بسوى انتحاركم له لا يقنـع
سلفاً يقـوم بالـدم استقلالـه فإذا صدقتم بادعـاء فادفعـوا

وسخر من مجلس النواب وطالب أن تكون محاكمة الخصم بريئة عادلة ليفسح له المجال فى الدفاع عن نفسه ولا يضغط على حريته فقال :

لتكـن محاكمة الخصـوم بريئة فى قاعكم وليحسن استجـواب
تأبى المروءة أن يقدس خـائن أو أن يطـول على البرىء حساب

ويضعف الجواهرى ويلين حينما يريد من الشعب العراقى أن يتروى فى قصده ولا يتهور مستعجلاً فيقول :

أوحى الزعيم إلى الجزيـرة كلها أن ليس يدرك بالكـلام طـلاب
يا هذه الأمم الضعاف تـرويا لا تنهضى صعـداً وأنت زغـاب
لا تقطعى سبباً ولا تتهـورى نزقا إذا لم تكمـل الأسبـاب
لا تدنُ من ظفـر القـوى ونابه إن لم يكن ظفـر لديك ونـاب

لأن محاربة الخصوم فى غير أوقاتها معناه الخسارة فيجب أن يستعد الشعب فقال :

وإذا عتبت على القـوى فلا يكن إلا بأطـراف الحـراب عتـاب[٣٠]

(٣٠) ذكرى السعدون ص ١١٩ .

وقد اغتنم محمود الملاح انتحار السعدون ، فجال جولة سريعة ذكر فيها فوادح البلاد العربية المتتالية فى فلسطين وسوريا ومصر والمغرب ، إذ تئن العروبة من هذه المصائب المتوالية وكأن الشرق براكين هذه المصائب ، ثم ينظر نظرة الأمل الباسم فيقول :

سينتبه النـوام مـن غفلاتهـم قياماً فلا يبقى على الأرض هاجع

ثم يتطرق إلى نكبة العراق وما أصابه ويهاجم الذين عارضوا السعدون فى سياسته واضطروه إلى الانتحار ، يقول :

أراد أناس أن يجـاروه فى العـلا وكيف يجـارى الجون صفراء فاقع[٣١]
ضحية قـوم ما دروا كنـه فضله ولا عرفـوا سر الذى هـو شائع
ورب كريم ضـاع بين معاشر كعقد نفيس فهو فى الفحم ضائع

ويتحدى أولئك الذين انتحلوا الوطنية بالانتحار ، والملاح مسلم متدين يعرف جيداً أن الانتحار إثم لا يرضاه الشرع ، لذلك استرجع فقال :

فمن ينتحل من بعد ذا وطنيـة ولا ينتحر فهو الكذوب المخـادع
وليس مرامى أن تضحى خـلائق ولكن مرامى أن تضحى المنافـع
قياس صحيح لا ينافيـه منطـق وإن خالفتنى فى القياس المنـازع

ويطلب من الشعب العربى أن يتحمل كل جفوة حتى يتم له الأمر ويصبح قوياً :

فيا شعب قحطان احتمل كل جفوة إلى أن تماشى جانبيك المدافـع
وحتى ترى فى ساحتيك فيـالق ينـادون لا استقلال إلا المعامـع

ويريد الملاح أن يسمع رمزى مكدونلد رد فعل المصاب الذى حل بالعراق فيقول :

دوت طلقة ليلا بآفاق دجلـة فيا (مكدونلد) هل لها أنت سامع ؟
تململ منهـا راكـد وتحركت شجـون وهاجت بالنيـام المضاجع
وطلقة نـار فى مخـارم شاهق سيلقى صداهـا شاسع ثم شاسع
رأيت رخيصاً كل ما العرب قدمـوا وهذا دم غـال فهل أنت قـانع

وفى القصيدة التفاتة سريعة إلى ما حل بالعراق من انتهازية فأثرى فيها الانتهازى والأجنبى ، أما أبناء البلاد الذين يتعففون عن الإثراء العاجل فقد أصابهم الطوى فقال :

(٣١) الجون – الفرس الأدهم

تأثل ملكاً فوقهـــا كل ناكث وصـــار له فيهـــا قرى ومـــزارع
وأثـــرى بأمـــوال البـــلاد أجـــانب ومات مدينا ربهـــن المدافـــع[٣٢]

ولم يكن انتحار السعدون عائقاً عن إنجاز ما صممت عليه الحكومة البريطانية ووافق عليه الساسة فى العراق ، إذ سارت المعاهدة فى طريقها وعقدت فى ١٦ من تشرين الأول أكتوبر سنة ١٩٣٠ م وبعدها أدخل العراق فى عصبة الأمم عضواً مستقلا .

وقد أقامت الحكومة العراقية مهرجانات رسمية خرجت فيها المدارس تنشد أن العراق أصبح مستقلا ، وأذكر ونحن طلاب فى المدرسة الابتدائية أن خرجنا وطفنا فى المدينة ننشد نشيداً منه :

بمثـــل اليـــوم يا عـــــرب دعـــــاة المجـــد قد وثبـــوا
خيـــولا فوقهـــا وثبـــوا فنالـــوا منـــه ما رغبـــــوا

غير أن النبأ لم يهز شعور الشعراء فى العراق إذ لم أعثر على شاعر نظم فى هذه المناسبة غير حسين بستانه قال فيها :

بغـــداد وافتك البشائـــــر فابسمى وترنحى مسرورة وترنمـــــى
ولتلبسى للمهرجـــان مطـــارفا ولتخلعى ثوب الحداد الأسحم[٣٣]

وبعد دخول العراق عصبة الأمم ساد العراق هدوء سياسى نسبى فقد حل محل النظام القديم نظام جديد حاول السيطرة على العراق سيطرة تامة بكل الوسائل لكى يخلق له وحدة إقليمية جديدة . وحدثت بعض الثورات الداخلية والرجات ، مثل ثورات العشائر فى الشمال والجنوب وثورة الآثوريين ، غير أن الحكومات كانت تمنع تسرب الأخبار عنها إلا النزر اليسير وكانت تقابلها بالشدة والقسوة ، لذلك خلت هذه الفترة من شعر منشور يمثل هذه الثورات إلا النزر القليل الذى لا يمكننا اعتباره ظاهرة جديرة بالدرس .

غير أن الأحداث العربية كان لها صدى عميق الأثر فى اتجاهات الشعر العراقى جديرة بالدراسة ، فهى تمثل جانب الإحساس القومى بهذه الأقطار ، وقد كانت الاستجابة لمشكلات العرب أعمق من الاستجابة لغيرها من الأحداث ، فنحن نجد آثاراً ظاهرة واضحة لفلسطين

---

(٣٢) ذكرى السعدون ص ١٢٢

(٣٣) جريدة العراق العدد ٣٨١٠ السنة الثالثة عشرة ١٩٣٣ م

وتونس والجزائر ومصر وسوريا والأردن وعدن أكثر من غيرها . ومع ذلك فلم يخل الشعر العراق من روح إنسانية عالية ، فقد كانت حوادث الاستقلال والثورات على المستعمرين تجد لها صدى ، فقد استجاب للمشكلات الإنسانية والمشكلات الشرقية والمشكلات العالمية كاليونان والهند والصين .

والاستقرار النسبي العام كان سبباً واضحاً فى اتجاه بعض الشعراء إلى الوجهة الاجتماعية . وبذلك نجد الشعر التزم جانباً فى صميم حياته الداخلية الأحداث الاجتماعية .